الصدى

الصدى

تأليف

محمد زكريا الزعيم

الطبعة الأولى
٢٠١٠

جميع الحقوق محفوظة © لدار الرواد للنشر

ISBN (ردمك): 978-9333-401-25-2
العنوان: الصدى
الموضوع: الإنسان والكون
تأليف: محمد زكريا الزعيم
عدد الصفحات: ٢٦٤صفحة
قياس الصفحات: ٢٠ × ١٤
عدد النسخ: ١٠٠٠نسخة
الإخراج الفني وتصميم الغلاف: فيصل حفيان

دار الرواد للنشر
PIONEERS PUBLISHING HOUSE
سوريا ـ دمشق ـ حلبوني ـ شارع مسلم البارودي
تلفاكس: 2228261 (11-963+) ـ ص.ب: 4943
www.rowadpub.com
info@rowadpub.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

حُبِّب إليَّ وأنا أستشرف المستقبل، أن أرتدَّ ببصري من حين إلى آخر إلى أعماق النفس، فأنقِّب في خزانتها وأقلب في سجل ذكرياتها، لعلي أقع على ما بقي نابضاً في واعيتها أو ظلَّ حياً في ذاكرتها، أو أنصتُ إلى ما ظل صداه يتردد في أثيرها حين أنبش مخبآتها، أو أزيح ستائرها، فإنَّ للماضي سلطان على النفوس، وحنين في الأفئدة يجعل الأنفس تحنُّ إلى أن تحيا في ظلاله من جديد!.

وكنت كلَّما إبتُ من رحلتي تلك بين أغوار النفس وشعاب الأعماق، أعود بحظٍّ وافر وصيد ثمين، ولكنّ ما فزتُ به في رحلتي هذه كان أكبر وما وقعتُ عليه كان أنفس!. فما زال رنين بعض الأقوال الدافئة التي انبجست من أصوات واعية وألباب حكيمة يتردَّد صداه بين الجوانح، مما زيَّن لي أن أتَّخذ من تلك الأقوال عنوانات منيرة أتوج بها صحائف الخواطر وأجعلها عمدةً يجري القلم في ميدانها، ويطوف الفكر في رحابها.

فإنها لجديرة أن تتبوأ في القلب هذه المنزلة لما تتسم به من صدق اللهجة وما تتَّشح به من حرارة الشعور، فإنَّ النفس البشرية

إذا ارتقت إلى تلك الذروة أتت بالعجب العجاب، وتفجَّرت في داخلها ينابيع الحكمة وفاحت منها طيوب المعرفة.

فطوبى لمن يتعرض لنفحات النفوس في أوان حكمتها، وفيض لواعجها فإنّه سيعود منها لا محالة بقبس!.

ألا إنَّ في دهرنا نفحات فلنتعرض لها!..

فلنتعرض إلى نفحات النفوس إذا استكملت فضائلها، وجاش شعورها وفاض طربها.

ولنتعرض إلى نفحات الكون إذا أبدت الطبيعة محاسنها وأتمَّت زينتها وقامت للربيع تهتف له: حلَلْت أهلاً ووطئت سهلاً!.

ولنتعرض إلى نفحات السماء في ليالي نزول القرآن ونداء المآذن في الغدوِّ والآصال!.

ألا إنَّ في دهركم نفحات فتعرضوا لها!.

محمد زكريا الزعيم

دمشق

١٦ / جمادى الأولى / ١٤٢٧ / هـ

الموافق لـ ١١ / حزيران / ٢٠٠٦ / م

النَّفسُ البَشَريَّة

معن بن زائدة

نحن أعرف بأنفسنا

يخيَّل إليَّ وأنا أطالع سير أولئك الصحب الكرام والأجداد الأوائل، أنَّ أولئك القوم الكرام قد نشؤوا في أرض فاضلة بين السحاب، حصباؤها لآلئ قطرٍ لا حجارة طريق، وهواؤها رخيٌّ عليل لا غبار عليه صفيق، وفضاؤهم واسع أبيض لا تعلوه أسقف ولا تحدُّه جُدر.

لذلك اتسعت آفاقهم، ونصعت سريرتهم، وارتقت أنفسهم وأراني كلَّما قرأتُ سيرتهم وتقصّيت أخبارهم، يمتلأ صدري بأخلاط المشاعر وأمشاج اللواعج ثم ينماز من بينها شعوران:

شعور بالرضا والطرب إعجاباً بما رأيت من أمرهم وافتتاناً بما عرفت من خبرهم، وشعور بالحسرة والألم وإحساس بوضاعة الدرك وصغر الشأن، لأننا لا نستطيع نحن أبناء هذه الحقبة أن نبلغ

شأوهم أو نرقى إلى علاهم، فإنَّ البون شاسع والملتقى عسير فكأنَّ السمع والبصر والفؤاد عندهم قد أضحى خيِّراً فلا يرون إلا فضلاً ولا يسمعون إلا حقاً ولا ينطقون إلا صدقاً.

أو كأنَّ الفضيلة قد تجسَّدت في شخصيتهم أو تجلَّت في طلعتهم فلا نحسُّ منهم إلا النبل ولا يبدو منهم إلا الطيب.

فلو سُئل أحد أصحاب التيه والعجب ممَّن يريدون علوَّاً في الأرض ماذا تتمنَّى ؟ لأجاب دون تردّد : احترام الأقارب وتقدير الأباعد!..

فإذا ما قاطعناه مستنكرين وهل تحترم أنت نفسك أولاً ؟ جحظت عيناه ثم نظر إلينا بشزرٍ وبلادة واستنكار قائلاً : وما علاقة هذا بذاك ؟

لقد فات هذا الأحمق أن من يروم الطابق الخامس في المبنى لا بدَّ أن يمر بالطابق الرابع ومن أراد أن يبلغ الأعلى من السلم لا بد أن يبدأ بالصعود من الأدنى.

فإذا لم يحترم الإنسان نفسَه أولاً فلن يبلغ منزلة احترام الآخرين، وتقدير الذات لا يتأتى لأحد ما لم يؤد الواجب للواجب برضا نفسٍ وطيب خاطر ولا تنبغي له تلك المنزلة ما لم يكن الصدق مع النفس ملء إهابه ومعالم طريقه، فإذا ما بلغ ذلك المرتقى الصعب ارتدى رداء الفضل وتجلبب عباءة النبل.

حينئذ يأتيه تقدير الأغيار طوعاً أو كرهاً، ولو كانوا من ألد الخصام دون أن تطلبه النفس أو تسعى إليه حثيثاً!.

ولعل من أصدق مظاهر احترام الذات أن يؤدي الإنسان الواجب دون رقيب أو شهيد وكأنَّ الفضل طبع فيه أو جبلّة جُبل عليها، لذلك صرخ معن في وجه لائمه بإصرار حين رمى كيس الدنانير للمرأة " إن كانت لا تعرفنا فإننا نعرف أنفسنا "[1].

هذه هي العزة التي ننشد والمنزلة التي نصبو إليها فمن لم تكن عزّته من داخله، وعظمته من ذاته فليس له من سواها نصيب!.

إنَّه سلوك خير يقصر عنه كلُّ قلم ويضيق عنه كلُّ قرطاس، إنَه المعروف في السر والعلن والفضل بلا خوف ولا طمع!..

---

١ ـ تمام القصة

تاه معن بن زائدة في الصحراء، فاستقبلته امرأة في خبائها، وأكرمت وفادته دون أن تدري أنه الأمير معن، وقبل أن يغادر خبأها مودعاً رمى إليها كيساً فيه مئة دينار ذهبي وكان لا يملك غيرها.

فاستنكر الخادم وقال له: لو اقتصرت على دينار واحد لرضيت به واكتفتْ. فإنها لا تعرفنا، فنظر إليه معن لائماً وأجابه بذلك الجواب البليغ!.

كل ما يوجد بعيداً عن متناول اليد، وكلُّ ما يوجد أمامنا شيء صغير للغاية إذا ما قيس بما يوجد في أعماق أنفسنا!.

رالف والدو أمرسون

الكنز في أعماق النفس

زُيِّن للإنسان أن يبحث عن كل ما هو ثمين نادر من نفائس اللآلئ ومن روائع الجواهر ولا يزال يخطف بصره بريق الذهب ووميض الورِق.

فهو لا يفتأ يلتمس تلك الكنوز من موطنها، ويلهث طالباً إياها من منجمها، فتراه يكدُّ الذهن ويبذل الطوق ويفني العمر في سبيل ما يبتغي ولكن عبثاً إنَّ سعيه هباء، ورجاءه سراب، لأنه ضلَّ الطريق، وتاه عن الدرب، فكيف يهتدي إلى ما عنه يبحث ويمسك بما منه تفلَّت ؟!.

فلا عجب إذاً أن يؤوب من بحثه خالي الوفاض، قاطع الرجاء، ينفض يديه من مناه كما تُنفض كفاه من تراب مَنْ في القبر واراه وما خيبة رجاء ذلك الأعمى الضال إلا لأنه:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما

والمـــاء فـــوق ظـهـرهـا محـمـول

فهو لم يدقّق النظر، ولم يحسن البحث، ولم يتنبّه إلى الغوص، ولو أدرك ذلك السر الكبير لسعى حثيثاً إلى رحلة الأعماق في أغوار النفس وشعاب الباطن، فثمة المنجم الوحيد لكلّ النفائس، والمحارة اليتيمة لكلّ اللآلئ، وكلما مضى الغواص بعيداً في تلك الأعماق، وغاب طويلاً في الأغوار وجد فيها ما لا يُقدَّر، واستخرج منها ما لا يقوَّم وحظي منها بما لا أشباه له ولا نظائر.

وليس العظماء والمبدعون من صفوة البشرية إلا أناس ارتدّوا إلى ذواتهم وتعرفوا إلى أنفسهم فاستخرجوا من نفائس مخبآتها، وتخيَّروا من نادر كنوزها.

إنهم معشر طلبوا الماء من ينبوعه والتمسوا العطر من أزهاره، لقد عرفوا الموضع واهتدوا إلى ا لمنجم فشمروا الساعد وأجادوا الغوص!.

فما أجدرك يا صاح أن تقتفي أثرهم وتسير على هديهم، فإن لم تجد في نفسك ما تبتغي فلا تبتئس ولا تشكو، بل اجعل من نفسك صعيداً مباركاً وثرى طيّباً، يتنامى فيه أجود الزرع ويستوي على عروشه أطيب الغرس...

لا أجد ما أشتهيه وما أشتهيه لا أجده!..

أعرابي

لا أجد ما أشتهيه

هكذا الحياة نضارة أيكةٍ، الحسن فيها لا يكمل، فإذا ما اخضرَّ منها جانب جفَّ جانب.

فقد تجود بشيء ولكنها تضنُّ بأشياء، وقد تبسط الكفّ بما عليه قوام الحياة ولكنَّها في الوقت نفسه تشيح الوجه عن زهر الأماني وآمال المهج.

فما كلُّ طعامٍ في الحياة يُشتهى، وما كلُّ شراب منها يذاق!..

فإذا ما وقف المرء منها على هذا الخُلُق فيها، وأدرك تلك الجبلة التي طبعت عليها، فإنَّ الأمر يهون عليه لأنه حينئذ سيعرف كيف يكبح جماح مناه، ويتجرع بصمت مرارة الحرمان!..

فما خلقت الحياة لتعطي وتجود فحسب، بل لتمتحن وتبتلي.

فـإن الجهل في أسـرار الحيـاة يجعـل الكثيرين يلقـون عليها بالعتب واللائمة ويرمونها بالشح والإعراض، ويتأففون من إمساكها ويضيقون ذرعاً بسرابها.

فالحذر الحذر من اللهاث وراء سـرابها والانخداع بخلَّب برقها وإلّا فإنّ الفطام صعب والارتداد عنها شاق، والارتطام بجدار الصحو موجع!.

وليوطن أحدنا نفسـه على أن يقيـم صلته بالحياة على ما يفعل وينجز، وليس على ما يشـتهي ويرغب، ولـيروِّض إرادته على تحمّل شـدائدها ومرارة علقمها كما يقتضي أدب المجالس منا أن نحتمل ولو إلى حين غلظة جليس لا نودّه، أو ثقيل لا نستحسن صحبته.

وما أشـبه المرء في فسطاط الحياة هذا بحال من يدخل مطعماً لا يقدم إلا وجبة واحدة، حينئذ ليس في وسـع ذلك الزائر أن يتشهّى ويبالـغ في الطلب ويتشـدّد في الاختيار فلن يحظـى بغير وجبة واحدة وصنف يتيم.

قد لا يرضى الإنسـان عن صورته وشـكله، وقد يسـتقلل ما وهبتـه الحيـاة من طاقات وما منحته من مواهـب، وقد يألم لتجاوز سـحب الحظ أرضه وذبـول أمانيه على أرض الجـدب، وقد يتأفف مما يقع له...

ولكـن عليـه أن يعلـم أنّ الحيـاة لا تجود لحكمـة إلا ببعض العطـاء فينبغي لـه أن يتقبّل ما يُقـدَّم إليه، ويصبر على خسـارة ما يُحجب عنه فقد قُدِّر لنا أن نحتسـي الشـراب مرنّقاً ونتجرَّع الطعام بائتـاً، فعلينا أن نتقبّل ذلك بطيب خاطر ونفس مطمئنة ما دام ليس في وسعنا تحقيق كلّ ما نريد، ودفع كل ما نكره، ولتكن أيامنا القصـيرة أوقات عملٍ وإنجـاز، وملء صحف الحياة بجلائل الأعمال ففي ذلك وحده السلوُّ والتّعزّي!..

وما الوجه إلا واحد غير أنه

إذا أنت عدّدت المرايا تعدّدا

محيي الدين ابن عربي

ما الوجه إلا واحد

كلّ من اعتاد أن يرى اختلاف الزرع وتلوّن الزهر في الرياض الغناء والجنات الوارفة يُفتن بهذا التنوّع ويؤخذ بذاك التلوّن، فيتَّخذ من ذلك مقياساً للجمال وأمارةً على الحسن، وقد فاته أن ذلك المقياس لا يستقيم في كلّ حال ولا يطّرد في كل مشهد.

ولا عجب في هذا الافتتان فذاك ذوق فطري وخلق أصيل في جِبَلَّة الإنسان ونظرته إلى الجمال.

فالتنوع شيء جميل وأمر مستطاب في كلّ شيء غير الوجه، الوجه الذي صوره البارئ فأحسن صورته، فإذا ما تشكَّل الوجه وتعدّد الملمح اصطبغ بالقبح وتجلّل بالدمامة.

وما ذاك إلا من طبائع الأمور لأنَّ التذبذب بين القيم، والتأرجح بين المذاهب، والتقلّب بين المواقف يورث النفس ظلمة وجهامة، وينعكس على الوجه قبحاً ودمامةً!.

فالوجه الذي يدور مع الليالي ويتذبذب مع الوقائع، إنما هو وجه دميم مشوَّه الملامح متجهِّم الطلعة تشكّل ملامحَه مرايا مقعّرة وعدسات محدبة فتضطرب فيه النسب وتخبو فيه الوضاءة وكأنَّ رساماً هزلياً من أرباب الكاريكاتير قد عبث بملامحه وشوّه قسماته.

ولو صعَّدنا النظر في ملامح هذا الكون الجميل لرأينا فيه شاهدَ صدقٍ وحَكَمَ عدلٍ، فطلعةُ الشمس واحدة لا تتبدل وإطلالة القمر نفسها لا تتغير!.

ومع ذلك فنحن نشتاق لشروق الشمس شوق المحب، ونترقب إطلالة القمر ترقب المشوق.

فإذا ما طلعت الشمس من مشرقها وأطلت علينا من شرفتها ملأت أعيننا بالنور، وصدورنا بالحبور فيما تتقاصر عنه المصابيح المنيرة بتلألئها والسرج الزاهية بتألقها، والأضواء الساطعة بألوانها، إن الله في العلا واحد، والحقَّ في الأصداف واحد، والنورَ في المشارق واحد. فلماذا لا يكون الوجه واحداً، والهديُّ واحداً ؟

ألا يورث ذلك الجَنانَ ثباتاً، والنفس سكينةً ؟

لا تنظر إلى القول
ولكن انظر من يقول

صوت الحياة

لا تنظر إلى القول

درج صنّاع الكلام من خطباء وأدباء ومتكلمين، أن يغزلوا الكَلِمَ وينسجوا الخطاب ليصبح أكثر جذباً للأسماع، وأكثر تأثيراً في الألباب.

وكانوا في سبيل ذلك يتأنّقون في اختيار اللفظ وتأليف الجمل ويلهثون وراء الأفصح والأكمل والأجمل، فيولون الجانب البلاغي كلّ الاهتمام دون اكتراث بالجانب النفسي والحالة الشعورية للمتكلّم والمتلقي على السواء.

ومازال الأمر كذلك حتى سئمت الأسماع الإنشاء وأهله، واشمأزّت الآذان من التشدّق بالكلام، والتقعّر بالبيان، والتعالي

بالخطـاب وكرهـت النفـوس منابـر الخطابة ومناضـد الكلام، وزهدت في الاستماع إلى أرباب البيان وفرسان الكلام.

فما عادت الكلمة تصدر عن نفسٍ توّاقة وشعور صادق.

والكلمة إذا لم تخرج من القلب هيهات أن تدخل في القلب!.

والخطـاب إذا لم يكـن على قـدّ صاحبه، يحمـل أفكاره، ويترجـم مواقفه، ويبثُّ لواعجه فليس له في النفوس من وقع، وليس لصداه من أثر!. ويصبح عاراً على الناطق به فإذا به يصغر في الأنظار، ويسقط من الأعين، ويصبح عرضة للهزء والسخرية والتندّر.

فمـاذا لـو أن جبانـاً يتكلّم عن البطولـة والشـجاعة، وقوّاداً يحاضر عن الشرف والحصانة ولصّاً يتشدّق بالقيم والأصالة ؟!

فلا شـك بأن كلّ سامع سيهتف بهزءٍ ويصفّق بسخرية مشيراً إلى الخطيب بأصابع الإدانة والاتهام، إنّه كذّاب، إنه متحذلق، إنه متفاصح، إنه تاجر كلام وبائع قيم!.

ثـم يضع أنامله في أذنيه ويستغشـي ثيابه ويمضي في سـبيله لا يلوي على شيء!..

من كان نعلاً فلا يفخرن
بالقدم التي تنتعله

صوت الحياة

من كان نعلاً

إن ما يحقّ للإنسان أن يفخر به حقّاً ما كان نابعاً من ذاته، متفجّراً من أغوار نفسه، وليس ما كان خارجاً عنه يهبُّ عليه من كل جانب، ويَتنزّل عليه من كلّ شاهق!. والعاقل الفطن من يرتدُّ إلى مخبآت نفسه فيبحث عمّا فيها من كنوز المعارف وما تتحلّى به من غرر الشمائل وليس بغير هذا يرسم صورة نفسه ويحدّد ملامح شخصيته، وإلا سيغدو المرء ظلاً لا هيئة له يتشكّل مع كلّ صورة، ونعلاً فضفاضاً يتَّسع لكلّ قدم، ولن يشفع له ما يصيبه من حظوظ دهره كجاهٍ يناله أو ثراء ينعم به أو منزلةٍ يتبوأ مقعدها!.

لذلك هيهات أن يقع حسد الحساد أو تتّجه غبطة الأصحاب إلا على ما كان زينةً للذات وحِلْيَةً للنفس من فرائد الشمائل أو نفيس الطبائع أمّا ما يتساقط على النفس من سحائب الحظّ وإقبال الدهر

فلا يبلغ تلك الحدة من سورة الحسّاد وغيظ الشانئين لأنّهم يدركون تماماً أنه لا يد للنفس فيها، ولا فضل للذات بها.

ومتى أنكر المرء هذه الحقيقة الناصعة، وأبى الرحلة إلى داخل ذاته، تولّدت عنده عقد النقص وأدواء الصَّغار فإذا به يبحث عن الكمال في نسب شريف، أو ثراء وفير، أو جاه عريض ولكن هيهات هيهات أن يشفع له كلّ هذا، ومحال أن تقرّ العين بشيء من ذلك، لأنّ صاحبها قد ضلَّ عن الطريق وتاه عمّا هو مدعاة للتفاخر فإذا هو ذَنَبٌ لكلِّ تابع، ومرتسم لكلّ صورة، وخيال لكلّ حقيقة فما أهون من كان بوقاً يردّد كلّ نداء، وصدى يصدر عن كلّ صوت، وليس كالحياة شاهد عدل، وبيّنة واضحة على ما نقول. فهذا تاريخ الحضارة لا يقرُّ بالخلود إلا لمن كان عصامياً سيرته حياكة من نسج يده، وإنجازه ثمرة من نفسه، وجوده هبةٌ من ذاته.

فمن أعرض عن هذه الحقيقة، وأمسى يفاخر بما ليس منه فسيكون حاله نعلاً يفاخر بالقدم التي تنتعله!.

يجود بالنفس إن ضنَّ البخيل بها

والجود بالنفس أقصى غاية الجود

أبو تمام

الجود بالنفس

الكـرم تاج الفضائل وذروة المـكارم، والجود بالنفس أقصى غايـة الجـود وأعظم أنـواع العطاء لأنه جود بأنفـس وأغلى ما يملك الإنسـان، وهـل لدى الإنسـان ما هو أغلـى من روحه التي هي سـرُّ وجوده ؟

وقـد عُدّ الجود من أعظم الفضائـل لأن فيه معنى الإيثار، وفي الإيثـار تكمن معاني المحبة وتسـتتر كلّ مشـاعر الـوداد فهيهات أن تؤثـر أحـداً على نفسـك إذا لم تكن تحبه ويكـون له في ودِّك نصيب!.

لهذا السبب كان الشهيد عظيماً. إنَّه يحبُّ أمته ووطنه حباً شديداً لذلك آثرهما بروحه الطاهرة التي هي أغلى ما لديه، على حين قد يضنُّ سواه بأبخس الأشياء وأرخص المتاع!.

ألا يستحقُّ الشهيد بعد هذا الإجلال والإكبار، والحياة والخلود ؟

فهو حيٌّ في السماء، وحيٌّ في الأرض.

حيٌّ في السماء لأنّه يرتع في الجنان في كنف الرحمن.

وهو حيٌّ في الأرض بخلود ذكره، وعطر سيرته، فإنَّ ذكره يشرِّف الألسنة ويعطر المجالس ويبعث في القلوب هيبة وفي العيون عِبرة وعَبرة.

ليس الشهيد ذكرى عطرة وسيرة مقدسة فحسب، بل هو منارة تهدي الأشبال إلى طريق التضحية والفداء، ومعلِّم يعلّم الأجيال مكرمة الجود والإيثار. وحسبه فخراً أن تعاليمه أوقع في القلوب وأشدُّ تأثيراً في النفوس، لأنَّهُ قرن القول بالعمل، والمبدأ بالسلوك مترفّعاً عمّا يفعله سواه ممَّن يطلقون الشعارات الجوفاء التي تحملُ معاني البطولة والنضال، ولكنّها تخلو من مكرمة الإخلاص وفضيلة الصدق، شعارات عظيمة سامية غير أنهم اتَّخذوها أدوات صيدٍ وشباك قنص!!

ألا يستحقُّ الشهيد منّا نظير ما جادت به كفاه، وما آثر به أمته أن نطأطئ له الرؤوس، ونحني له الهامات ونكرمه حقَّ الإكرام ونُجِلَّه كلَّ الإجلال ؟

أليس الأجدر بنا أن يكون لنا في السماء أسوة حسنة فنكرمه كما أكرَمَتْهُ، ونرفع مقامه كما رفَعتْه ؟

وليس تكريم الشهيد بإقامة التماثيل تخليداً لذكراه، أو تطويق عنقه بغُرَر المدائح، وأبكار المعاني وفرائد الأبيات، بل باقتفاء أثره ومحاكاة سيرته، بل باستلام الراية وحمل الأمانة التي أشفقت من حملها الجبال! بل بالثأر له والانتقام للرسالة السامية التي استُشهد في سبيلها والهدف النبيل الذي ناضل دونه، والقيم العظيمة التي دافع عنها.

بوركت أيها الشهيد! فحسبك فخراً أنك ذُدْت عما فيه شرف الأمة وكرامتها!

لقد دافعتَ عن الحمى، وناضلتَ دون الدين والقيم، وحميتَ الثغور والأمصار، ورشفت كأسَ الموت لتوهب لنا الحياة، فأنتَ أنتَ من أدركَ أنَّ الشرف لا يتطهر إلا بالدماء فلكَ كلّ الحب والإجلال والوفاء!

قصة تاريخية

أعنَّةُ الخيل

مـع نفحات أنسـام الفجـر الرخيّة كان نور الصبح يسـري في جمرات الليل الأسـود فتتأجّج لهباً تُضرِّج حمرته أديم السماء بظلال قرمزية شفافة، تبهر الأنظار وتخلب الألباب.

علـى حـين انطلـق نـداء الله أكبر يصـدح من مآذن المسـجد الأمـوي يردِّد في جنبات الكون ذلك النشـيد الإلهي الخالد وكأنَّه حادٍ ملائكي يطرد فلول الليل وقطعان الظلام ويسوقها إلى ما وراء الأفق البعيد!..

في ذلك السَّـحَر أخـذت ميسـون تتلمّس طريقهـا بخفةٍ وحذر تطوف على بيوتات دمشـق القديمة التي تغفو وقد استسـلمت لرقاد لذيذ ناعم آمنة مطمئنة تحت جناحي ذلك النسر الأموي الذي خفض لها جناحي الحب والمرحمة، وقد أسرّت في صدرها أمراً، وآلت على نفسها أن تقوم بما لم يستطعه الرجال ولو كان في ذلك تجرُّع السم الزعاف، ونزول الموت الزؤام.

وقـد حلفت علـى ذلك بكلِّ محرجـة من الأيمان يمينـاً حتماً جزماً، لا نكثَ فيه، ولا سبيل للتحلِّل منه.

وبينما كانت الشمس ترقى في الأفق درجة درجة لتستوي على عرش السـماء، اعتلت ميسـون منبراً صغيراً ترجو لكلماتها المؤمنة أن تبلغ أقصى أذن في ذلك المحفل الذي ضمّ لفيفاً من الصواحب وثلةً من فتيات الحيّ:

« لقـد طمى طوفـان الموت أيتها الحرائـر الصواحب! وحاق بنا المكـروه مـن كلِّ جانب. وكأني بشـياطين التتار قـد مزقوا أديم الثـرى فخرجـوا لنا من كلِّ أرض، واندفعـوا نحونا من كلِّ ركن وأقبلوا علينا من كل ناحية، أمّا رجالنا فقد آثروا السكينة والدّعة. واسـتطابوا الحياة مع الذّل وكرهـوا الموت مع الفخار. فأخلدوا إلى الراحة والونى، واستمرؤوا الخنوع، واطمأنوا إلى القعود!..

وكأنّهم في منأى عن الخطر وليس ثمةَ حياض يدافعون عنها، ولا حمىً يخشون انتهاكها، ولا رسالة يجاهدون في سبيلها.

ولا حيلة لنا إلا أن ننضو عنا خِلَع الأنوثة ونطمس آياتِ الحسـن وندع الزينة والطيب ونرتدي لبوس الشجاعة وحُلَل الرجولة، ونمضي لنحقق ما تصاغرت دونه همم الرجال.

فها أنا ذا أرفع عن رأسـي تاج الحسـن لأجدل من شعري حبالاً مضفورة وأعنة مجدولة لخيل الجهاد ومطايا النضال ».

وبأسرع من لمح البصر وتردُّدِ النفس أخرجت ميسون من جيبها مقصاً، وأتت على أجمل تاج تزهو به كل غادة، وتفخر به كل حسناء! وقصّت ما حباها الله به من شعر يتوِّج رأسها وضفائر سابغة تزيد حسنها، وما هي إلا لحظات حتى أخذت بنات الحي يحذون حذوها ويفعلن فعلها فامتلأ حجرها بالجدائل المقصوصة والغدائر المبثوثة، والأشعار المنثورة وكأن الليل قد تطاير ريشه بدداً وقطع الظلام قد تناثرت مِزقاً.

وقبل أن تهم ميسون بالنهوض أمسكت صديقتها هند بيدها تستمهلها الخروج والكلمات تنبثق ثورة من ثغرها الجميل كما ينتشر النور من مصباح منير:

« ليعلم كلُّ رجل في هذه الديار أننا معاشر الحسان وربات الحجال في أرض الشام كوردة دمشق الجورية لا تتفتح أوراقها إلا لنور الفجر وإطلالة الضياء ».

وهنا التفتت ليلى بوجه مشرق فتان، كأنّما استمدت منه شمس الصباح تورّد لونه ونعومة ظلاله تريد أن تعمق مجرى الحديث أو توسِّع من دائرته!.. بل نحن كعبة حسن لا يطوف بها إلا من توضأ بماء الرجولة، ولا يدخل حرمها إلا من تجلبب بجلباب الشهامة، أو اشتمل بشملة الإباء ».

فانبرت عفراء تهمس بصوت أعذب من انسكاب المدام، «بل نحن ناي طروب لا يشدو إلا بنفثات صدر مترع بالحب، مفعم

بالأشـجان، دفّـاق بالآهـات، فيجـود حينئذ بأرّق الألحـان وأعذب الأنغام ».

واندفعت ميسـون بحماسـة واندفاع كطائرحبيس انفرج باب قفصـه فانطلق ينعم بحريته، ثم ولّت وجهها شـطر المسـجد الأموي حيث ينزوي خطيب المسجد في إحدى رحابه الطاهرة.

وكان بينهمـا حديـث أيُّ حديث! فقد آنس الشـيخ في نبرات صوتهـا لهفـة قلب نفد صبره، وضعف احتمالـه. تحفُّ به ضلوع أحرّ من الجمر، وأشـدّ تأججاً من اللهب، فياله من صوت شـجي يصَّعّدُ في أصدائه زفير النار وأنفاس البركان.

فكان حديثها جذوة أضرمت فؤاد الشيخ وشعلة ألهبت مشاعره وحرّكـت لواعجه، فغدا وكأنّ أشـواكاً تقضُّ مضجعه، فإذا به لا يطمئـن بـه مجلس، ولا يقـرُّ به قرار، فقـام لفـوره واعتلى المنبر وفي رأسـه تـدوي كلماتها الثائرة، وفي قلبـه يتوهج نورها وجلالها. فتتناغم في مسـامعه أصداء حديثهـا مع رَجْع الآذان يتردَّدُ في جنبات المسجد داعياً لصلاة الجمعة.

وأخذ في الكلام فكانت كلماته تتحدَّر تحدُّرَ السيل وتتطاير تطايـر الحِمَـم. وكأنَّ الله عـزّ وجلّ قد فجر ينابيـع الحكمة على لسـانه، فبين شـفتيه تتزاحم الحروف، وفي قلبه تصطخب المعاني، وفي صدره تضطرم الأحاسـيس، فلم يجد بأسـاً من خرق ما اعتاده مـن تنقيح العبارة وتخيُّر الألفاظ وتزيين المعاني، وهندسـة الكلام،

وكيف لا يكون كذلك وقد أضرمت الفتاة في صدره ما لا ترقى إليه الخواطر ولا تسمو إلى علاه المشاعر.

فكان الكلام ينبجس من أعماقه عذباً فراتاً، فيملك أعنَّة القلوب، ويردُّ شارد الأهواء، ويقوّم زيغ النفوس ويستهمي ماء الشؤون، فسرعان ما شخصت إليه الأبصار فسكنت الجوارح واطمأنت النفوس!

ولا غرابة في ذلك، ألم يكن كلامه إلهاماً تدفَّق بالحكمة وصدع بالحق ؟!

كلام لا يعتَورُهُ ضعف ولا يشينه تصنّع ولا يفسده تكلّف! تتلقّفه الأفئدة، فتستروح به الصدور، وتهشّ له المهج! وما إن انتهى الشيخ من ترديد كلمات الفتاة على مسامع المصلين: « ألا أيها الرجال هاكم جدائلنا اصنعوا منها أمراساً لخيولكم واضفروا منها أعنة لمطيكم، وإلا فخلُّوا بيننا وبين المجدِ الذي عنه قعدتم، والجهاد الذي عنه تثاقلتم ».

حتى ضجَّ المسجد بهتاف واحد قوي شقّ أجواز الفضاء وبلغ عنان السماء: اللّه أكبر، اللّه أكبر..

ثم خرج المصلون توَّاً يحثون الخطا نحو قلعة دمشق يحدوهم داعي الجهاد ليعدوا ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل وليمضوا مجاهدين في سبيل اللّه.

لقد كانت تلك الكلمة الشرارة اللامعة الوهاجة التي أججت لهيب حرب ضروس في « عين جالوت » جعلت التتار أثراً بعد عين.

لا شيخوخة لنفس
تثريها التجارب

صوت الحياة

ولادات متعددة

يطلُّ الإنسان على الوجود مرة واحدة في ولادة وحيدة فريدة لا تتكرَّر، تنقله من العدم إلى الوجود، ومن رحم الأم إلى حضن الأرض، تلك هي ولادة الجسد!.

ولكن النفس الحكيمة، تأنف تلك الولادة اليتيمة التي يقف دورها على تلك النقلة المألوفة المعتادة، فهي لا تقبل بولادة قاصرة كل ما في طوقها، بثّ الروح وبعث الحياة، لأنّها تدرك أن حياةً متعدّدة الجوانب، متنوعة الأنشطة، تحتاج إلى بعث جديد، وولادة متكرّرة عند كلّ فجر، وإثر كلِّ واقعة، وفي منعطف كلِّ حدث! وذلك للتأمل واستخلاص العبر وتقليب الأمر على كلِّ الوجوه، والنظر إليه من مختلف الزوايا.

فكمـا تنتقـل الطبيعة من خريف إلى شـتاء إلى ربيع فصيف، ينبغـي للنفس أن تنتقـل من اختبار إلى عبرة، ومن تجربة إلى اتِّعاظ، ومن قدر إلى اعتبار، فتتخذ من كل واقعة درساً، ومن كلّ ذكرى موعظة، ومن كلّ نازلة ثراء!.

فالعاقل من يعيد تنظيم ذاكرته من حين إلى لآخر، ولا سـيما في موسم النفس[1] حيث ينضّد خبراته في واعيته كما ينضّد كتبه، وينسّق مشاعره في صدره كما ينسِّق أزاهره، ثم يضيء بصيرته من مـزود التجارب وكنانة العبر ومسـتجدِّات التجارب، فلا يسـكره نجاح ولا يفتُّ في عضده خطب ولا إخفاق!

ولا يكن كلُّ حظه من الدنيا فرحاً أو مسرة، يأساً أو وحشة بل درساً وعبرة، وموعظة وخبرة.

بذلـك يرتقي المـرء، ويصبح قادراً أن يعلو على الحزن والفرح، والألم والغبطـة، ويسـتوي على صهـوة الحياة في الإقبـال والإدبار، فما أخسـر ذلك الذي لا يتجدّد مع كلّ سَـحَر، ولا ينشط مع كلِّ فجر، فإنه سيغدو لا محالة بحيرة آسنة أو مستنقعاً نتناً..

---

(١) ـ مواسـم النفس، ما يمرّ بها من شـدائد ومحن ومـا تلاقيه من عنت وضيق فما أجدر المرء أن يفيد من تلك النوازل!.

في رحاب الإيمان

« إن السجدة التي هي
جديرة بالاهتمام هي
السجدة التي تحرم عليك
كل سجدة لغير الله »

محمد إقبال

السجدة الفضلى

مَنْ منا لا يبتغي الرفعة وينشد العلاء ويهفو إلى منزلة سامقة بين الذرا والنجوم ؟

يا لها من أمنية غالية تدغدغ الأحلام، وتتحلّب لها الأفواه! ولكنَّ السبل إليها كثيرة والعقبات دونها كأداء، والسارون نحوها في ضلال! مع أن السبيل إليها أهدى من الكف إلى الكف، وأدنى من الجفن إلى العين، فهلا نظرت كيف يرتفع النبت، ويستوي على سوقه الزرع!

فـإنّ ذلك لا يتأتـى دون أن يغيب في طيّات الثرى ويمس بجبهته أديـم الأرض، فمن نشـد هذا العلـو ورام ذلك الارتقـاء فليجعل من الثرى موضعاً لجبهته وموطئاً لسجدته وذلك لمن جعل الأرض بساطاً والثرى له مسـجداً ففي ذلك علوٌّ أيُّ علو ورفعة أيُّ رفعة، وسمو وما أدراك من سمو ؟!

ولنحذر في الوقت نفسه من كلِّ سجدة سواها، فإننا لا نجني منها إلا الذل والتردي والانكسـار، فـإن العزّة لا تُلتمس إلا من ربِّ العـزة الذي ارتدى عباءة الكبرياء وحُلَل الجـلال وحُقّ له ذلك فمن سواه بذلك الرداء جدير ؟!

فإنَّ العزة لا تلتمس إلا من ربِّ العزة كما أن النور لا يُلتمس إلا من مشكاة النور، والريُّ لا يلتمس إلا من الينبوع العذب الفرات!.

فمَن ابتغى العزّة بغير ما أعزّه الله أذله الله.

فقد عثر الجاه بمن ركن إليه.

ومال المال بمن اطمأنَّ إليه.

وأزرى العلم بمن فاخَر به!

فمن ابتغى سـجدةَ حقٍّ فعليـه أن يقطع العلائق بالخلق وليَيْئَسْ مما في أيديهم، حينئذ سيأتيه النداء: « اترك نفسك وتعال إلي »

فـإذا ما تجـرد المؤمن مـن رداء ذاته كُسـي رداء عـزّ لا يبلى نسيجه، ومقام لا يُعلى عليه .

فإذا أتاه بذنبه أقبل عليه بمغفرته.

وإذا أتاه بضعفه أقبل عليه بقوته.

وإذا أتاه بعجزه أقبل عليه بعزته.

وإذا أتاه بجهله أقبل عليه بحكمته.

وإذا أتاه بفقره أقبل عليه بغناه.

وتذكر دائماً بأنك إذا رمت هذه السجدة، فليكن وضوءها ألا تركن إلى تدبيرك، ولا تطمئن إلى طوقك ولا تتوانى عن الاغتسـال من ذنبك!

حينئذ سـتكون سـجدتك سـجدة تحـرّم عليك كلّ سـجدة لسواه!.

نفسك سائرة بك، وقلبك
طائر بك فكن مع أسرعهما

إبراهيم بن داود الرقى

نفسك سائرة

ما أعظم أن ينتقل المرء على ذرا المكارم، كما تنتقل النسور على قمم الجبال وتتبوأ الأطيار أفنان الأشجار، ويقبِّل النحل زاهي الأزهار!

ولا بدّ لمن يتطلَّع إلى تلك المنزلة أو تشرئب عنقه إلى تلك الذروة أن يشمِّر الساعد ويقوي الجناح ويبسط البساط ليرتقي في الآفاق، فتلك منزلة لا تصل إليها خطوات وئيدة، ولا تبلغها أقدام حنّت إلى الثرى أو اثّاقلت في الأرض.

فيا مَنْ تحنُّ إلى أن تهجر الثرى وتجلي الغبار وترتقي في الآفاق لا يكن مطعمك تَوْقٌ وهوى، وخبز وإدام.

فَمَن لزم الموائد كان سيره دبيب خطوة، ومن رنا إلى السماء كان ارتقاؤه خفقة جناح!

فمن أراد للنفس عروجاً، وللمقعد علوّاً، ورام لطيرانه جناحاً ولرحلته نجاحاً؛ فليلتمس الدرب، ويخلص النية، ويحدد المقصد.

وليبتغِ أطايب الزاد، فما كل زادٍ يلائم ذاك الطريق!

متى كانت أبواب السماء مغلقة ؟

صوت الحياة

الأبواب الموصدة

عاش حياته بعيداً عن الناس، متوارياً عن صخب الحياة، منصرفاً عن وقائع الأيام، فقد كان ديدنه أن يهرب من الواجب ويتثاقل عن حمل الأمانة، ولم يُعرف عنه ألبتّة أنّه هشّ لمعروف أو سارع إلى مكرمة أو خفَّ إلى نجدة، وقد بلغ منه الشحُّ مبلغاً أنه بات يستكثر على البائسين كلمة رضا أو بسمة أمل أو ربتة عطف على كتف، وكيف يُرجى ذلك مِمَّن في طبعه قسوة لا تلين، وفي نفسه غلظة لا ترق!.

وكان من عوائده إيصاد الأبواب، وإغلاق النوافذ، وإسدال الستائر حتى لا تصل إليه صرخة مستغيث، أو أنين ضعيف، أو نداء مظلوم!.

وليس هذا فحسب فمن طريف أمره أنَّه لا يكتفي بإيصاد الأبواب وإغلاق النوافذ وإسدال الستائر، فقد كان يحيط نفسه

بضبـاب كثيـف ودخان صفيق وكأنّي بـه لم يكن حظّه من اللغة إلا ألفـاظٌ مثل « أغلق، أوصد، أقفل » فقد كانت هذه الألفاظ أداة تواصل اجتماعي بينه وبين خادمه الحكيم وصديقه الوحيد.

وقـد أصبـح مألوفـاً أن يتعـالى صراخه في الغداة والعشـي في جنبات بيته النائي منادياً الخادم:

أغلق الباب الخارجي

أغلق باب الحديقة

أغلق باب الكراج

ثم لا يلبث أن يغطي رأسه ويستغشي ثيابه ثم يصيح بالخادم:

أوصد باب الغرفة وأقفل باب النافذة ثم أسدل عليها الستائر.

ولا يسـع الخادم المسكين إلا أن يستجيب لما طُلب منه، ويفعل صاغراً ما تضيق به نفسه ولسان حاله يردِّد « داروا سفهاءكم »[1]!.

وما زالت هذه هي الحال حتى حدث ما أضجر الخادم واستنفد حلمـه ولا سـيما حين ترددت في جنبات الدار أصداء أصوات سـيده وكأنها تنحنح شحيحٍ يائسٍ مخذول:

---

(١) الحديث النبوي في « كشف الخباء ومزيل الإلباس » للمفسر المحدث الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني الجرّاحي، مؤسسة مناهل العرفان / بيروت، مكتبة الغزالي / دمشق.

أطبق جفنيك! وأغلق منافذ ذهنك!

فأطبق الخادم جفنيه ثم سرعان ما فتح عينيه وهو يهتف مرتعداً:

هيهات هيهات! إني أحسُّ غواشي الظلام تسدل ستائر سوداء تكاد تخنقني، ثم أغلق منافذ ذهنه، فإذا به يستشعر أنه ثور رحى يدور، يدور، وما يزال يدور.

فأعاد لتوه فتح مغاليق ذهنه، فأحس بأنوار ساطعة لا عهد له بمثلها، فصاح بسيده مزمجراً: لن أكون ثور رحى، لن أكون ثور رحى.

فقاطعه صوت السيد نعيباً نهيقاً: إذاً أغلق أبواب السماء!.

وقبل أن يتم كلامه جاءه صوت الخادم الحكيم قاصفاً مدوياً: ومتى كانت أبواب السماء مغلقة ؟! ومن ذا الذي يقوى على إغلاقها!!

فبهت الذي جحد!

ألا إنّما الدنيا نضارة أيكة

إذا اخضر منها جانب جفَّ جانب

صاحب العقد الفريد

ألا إنما الدنيا نضارة أيكة

مما يزهدني في مطالعة شعر الحكمة جفاف العرض، وتواري الإبداع، وشحوب نضارة الرونق فيها، فقد تشابهت أساليب التعبير فيها حتى غدت كأوراق النعوة متطابقة الديباجة، متشابهة العرض نضب منها ماء الحياة. فهي في معظمها من قبيل شعر الزهد البارد الذي حمل لواءه أبو العتاهية، حيث جعل الحياة على رحبها ونضارتها مقبرةً كئيبة، وأحال كلَّ مظاهر النشاط البشري في عمارة الأرض وإقامة الحضارة إلى قافلةٍ تشيِّع جنازة أو تعزي براحل، ومسخ دور الإنسان إلى مسافر مترقِّب في محطة سفر ينتظر مطايا الموت، وقوافل الفناء، أن تمضي في رحلةٍ طويلة لا يُدرك كنهها ولا تُعرف وجهتها!.

وما زلت أضرب في بيداء شعرالحكمة حيث يأسُ المنقّب وتعبُ السائر ولفح الهاجرة حتى توقفت في واحة صاحب « العقد الفريد » عند قوله:

ألا إنما الدنيا نضارة أيكة

إذا اخضر منها جانب جفَّ جانب

فتوقفت مذهولاً عندهُ فقد بلغت بي سكرة الفن مبلغها فرأيت أن أتوِّج به مقالتي وأوشي سطورها بمعانيه، وإيحاءاته، وظلاله، فقد أتى الشاعر فيه بكلِّ عجيبٍ نفيس وأودع فيه كل ما في « عبقر » من إعجاز عرائسِهِ، وخواطر جِنّه، وغياهب واديه، وأسرار سكونه!.

فمن حيث المعنى لم يترك الشاعر زيادةً لمستزيد، فقد مضى في مضمار الإبداع بعيداً، وأوغل في أودية الفن كثيراً فلم يترك قدرة للاحق ولا طاقة لمنافس!.

فقد استطاع إجلاء فكرة مستعصية، وقَدر على تجسيد ملامح الحياة المتشعبة المتنوّعة المتباينة بصورة شعرية شائقة متكاملة يتيمة!.

أما الفكرة فهي أنَّ الحياة تأبى أن تصفو لأحد صفاءً تاماً لا شائبة فيه ولا غصة، وتتأبَّى أن تجود بكل طيباتها ومسراتها مجتمعة لأحد مهما قرب وعلا، فإذا صفا جانب منها جفَّ جانب وفسد بعضٌ وكأنها تستحي أن تسلب جنة الرحمن شيئاً من طبيعتها وحليةً من حليّها.

إنَّ المعانـي الجميلة والفِكَر الطريفـة هي ما يلهث وراءَها كلُّ فنـان وشـاعر، ولكن مـا هو أجمل مـن المعاني الجميلة هو حسـن عرضهـا وأناقة تصويرها وجمـال التعبير عنها، حتـى إن كثيراً من النقـاد من يقصر الإبداع في الفن على الشـكل دون المضمون إذ يرى أحدهم أن المعاني البكر والفِكَر الشائقة منشورة على قارعة الطريق فهي مبذولة لكلِّ راغب ومعروضة لكلِّ طالب، وما على الشاعر إلا التفنن في إبرازها في عرض جميل وتصوير بديع وتعبير أنيق.

وإننـا لنـرى مصـداق ذلك في عناصـر هذه البيـت جميعها فإنَّ فكرتـه في غاية الروعة وصحتها في منتهى الصدق، ولكنَّ أسـلوب الشاعر في عرضها قد بلغ الغاية في الإعجاز الشعري والإبداع الفني، وإنِّي لأجزم بأنَّ شاعرنا قد ارتقى في معارج الإبداع إلى منازل لم يبلغ شأوها مبدع ولم يرتق إليها أديب، ولكن يجب ألا يغيب عن البال أنّه من المحال أن يبلغ الأديب هذا المرتقى أو يرتقي إلى تلك المنزلة، إذا لم يتَّحد مع موضوعه ويتمازج معه فيذيبه في نفسه أو يذيب نفسه فيه!..

مـا أجمـل أن نـرى مباهج الدنيـا كوريقات نضـرة في روضة مزهـرة أو أيكـة فواحة ولكن لا بد للنظـر أن يقع في تلك الروضة على قذى أو يلمح قبحاً في ورقة جافة أو زهرة يابسة!.

إنَّ الحياة هي بحقٍّ تلك الروضة التي إذا اخضر منها جانب جفّ جانـب، فلم نعهدها قـط تقبل على أحد إقبـالاً كاملاً وقد صفت كلُّ مباهجهـا وطابـت كلُّ لياليها فلا بـدَّ للناظر مهما كان أثيراً لديها أن يقع منها على ما يعكر الصفو ويكدِّر السرور!.

الصوم لي وأنا أجزي به

حديث قدسي

في رحاب شهر الصيام

كلّما خطر ببالي قول الحق عزَّ وجلَّ « الصوم لي وأنا أجزي به » أتساءل مع السائلين، ترى لماذا لم يخصَّ اللّٰه الصيام بثواب محدّد أو مكافأة معينة كسائر العبادات، بل تُرك أمره لتقدير الإله وحكمة الرحمن.

الأمر واضح جلي فهو أظهر من أن يخفى أمره، وتغيب حكمته!.

إنَّ الصيام يقوم على أجل عبادة وأصعب رياضة ألا وهي مغالبة الهوى، ومغالبة الهوى ليس بالأمر اليسير، والمقصد البسيط، فدونه مواجهة طغيان النفس، وثورة أهوائها ،وعصف شهواتها ، والتحرّز من حِمَم أطماعها ، وغبار أمانيّها ، وسموم لذّاتها لذلك كان الصوم

السلاح البتار الذي يشهره المؤمن في وجه نفسه، والمجنَّ الأوقى، الذي يتقي به الصائم كيد نفسه وحظوظ مرادها.

إنّه شهر معترك الأنفس التواقة، والرغائب الموّارة!.

لذلك فالصيام من أشد العبادات ثقلاً على النفس؛ لأنه لا حظّ لها فيه ولا مطمع لها في أيٍّ من الرغائب والأماني. على حين قد تتسلَّل بعض الحظوظ خفية إلى سائر العبادات.

فلكلِّ عبادة سلطان للنفس عليها، واستطار للهب الحظوظ في رحابها. ومما يدل على صواب ما نذهب إليه أن مشكلة الإسلام مع خصومه ليست في استصواب مبادئه والاقتناع بفِكَرِه، وإنَّما الضعف عن مغالبة النفس ومجاهدة الهوى.

فالنفس حريصة على محاربة كلِّ ما يهدِّد حظوظها ويحدُّ من غلوائها ويحجر عليها ما تتوق إليه من جاه وسلطان وثراء...

لذلك كانت مثوبة الرحمن كبيرة ومكافأته مجزية!!.

الإمارة والسياسة

« إنَّ هذه الأمة لم تختلف في ربها ولا في نبيِّها ولا في كتابها، وإنما اختلفت في الدينار والدرهم »

عمر بن عبد العزيز

السبب الخفي

إذا ما اختلف اثنان في طريق لازب، واضح المعالم، نيّر الصوى وحيد الوجهة، يفضي إلى آخر، كان ذلك آية اعتلال وطغيان هوى، وإنه إن دلَّ على شيء فإنَّه يدلُّ على سوء طوية وفساد مقصد عند كل منهما، فهما لم يختلفا في الحقيقة على سلامة الدرب وصواب الوجهة، ولم يكن همهما سرعة الوصول وبلوغ المقصد ونيل المراد.

لأن وضوح الطريق لا يحتمل ذلك بل يحول دون ذلك!.

ألا إنَّه صراع هوى، واختلاف دنيا، وتعارض مصالح، اختلافٌ في دينار ودرهم وصراعٌ حول إمارة وزعامة، واشتجار عصبية قبليّة وحميّة جاهلية.

كلُّ ذلك قوّض بنيان الأمة وهدم صرح منعتها وجعل غَزْلَهَا أنكاثاً فأصبح جمعها بدداً، وواحدها عدداً، فخبا ذكرها وهان أمرها، ولم يبق لها في مجمع الحضارة مقعد صدق ولا موطئ قدم.

وقد تجلى حبُّ المنصب والاختلاف في الدرهم والدينار في غير موقف من مواقف تاريخ هذه الأمة:

فقد تجلَّى بادئ ذي بدء في ظهور الملل والنحل وانقسام الأمة إلى شِيَع وفرق واستئثار كلِّ حزبٍ بشاعر ينافح عنه وينشر عقيدته.

وتجلّى أيضاً في الصراع بين أفراد الأسرة الحاكمة في شتى العصور التاريخية.

وتجلّى أيضاً في استئثار العباسيين بالخلافة دون العلويين وهم الذين طالما نطقوا باسمهم وأقاموا دعوتهم على ذكرهم.

وتجلّى أيضا في استبدال المعتصم الجند الأتراك بالعرب الذين استبعدهم من أي نفوذ سياسي واجتماعي لإقامة سلطانه وحماية عرشه.

وتجلّى أيضاً في صراع ملوك الطوائف الذي كاد أن يودي بالخلافة الإسلامية في الأندلس.

وتجلّى أخيراً في سقوط الخلافة العثمانية وإيقاع الفتنة بين الترك والعرب، وما زال هذا الداء الوبيل يتجلّى ويتجلّى إلى يومنا هذا، وما زلنا نتجرَّع العلقم ونعاني الويل والثبور من اختلاف الأمة في الدرهم والدينار وصراعها على الإمارة والرئاسة.

لقد ذكر المؤرخون كثيراً من المقومات التي تقوم عليها الأمم، وتعلو فوقها الصروح، ولكن واقع الأمم أثبت أن تلك المقومات الراسخة لن تنفع أمة ولو توافرت كلها إذا لم يكن لها جناحان قويان تطير بهما من إرادة قوية وإخلاص للمبدأ ، فالإرادة القوية والعزيمة الماضية هي الدافع الذي يرتقي بالأمة صعداً نحو العلاء.

أما الإخلاص للمبدأ فهو الوقود الذي يسعّر تلك الإرادة والمِسَنُّ الذي يشحذ تلك العزيمة فتمضي لما تريد لا يقف في وجهها شيء حتى الفناء.

وإنمـــا الـنـــاس بـالمـلـوك

وما تفلح عرب ملوكها عجم

أبو الطيب المتنبي

إنما الناس بالملوك

ما زال كثير من المؤرخين في تسـاؤل وحيرة عن ظاهرة الانهيار السـريع والسـقوط المريع لهـذه الأمة، وأخـذوا يهيمـون في كلّ وادٍ ويسـيرون في كلِّ اتجاه للوقوف على بواعث هـذا الانهيار وعلة ذلك السقوط!

حقـاً لقد كان سـقوطاً مريعاً من قمة شـاهق إلى قرارة وادٍ، فبعد أن كانت أمتنا تتبوأ مقعد سـؤدد وعلو أمست تُسجَّى في مهاد الخنوع والجهل والتقهقر.

فبعد أن كانت في مقدّمة الركب تراجعت إلى مؤخرة القافلة وذيـل الراحلة فأمسـت مُقـادة بعد أن كانت قائـدة، وتابعة بعد أن كانت رائدة.

ولكن إذا ما نظرنا إلى مسيرة تاريخها الطويل وتأملنا في تتابع وقائعه ولا سيما المستترة منها لأدركنا السر وتكشفت إلينا بعض العلل والأسباب التي تتراءى لي معاول خفية لا تفتأ تنهال على بنيان الأمة، فتزلزل كيانه من القواعد.

لقد خُنقت حضارة هذه الأمة خنقاً، ولكنّه أشبه بخنق طائر، لم يكن خنقه إطباقاً على عنق بيد غليظة قاسية، بل كان خنقاً متمدناً يقوم على نتف الريش ريشة ريشة حتى إذا ما عُرِّي الطائر من ثوب ريشه الذي يكسوه مات لفوره من تلقاء نفسه.

ومن المؤلم أن نتف ريش طائر هذه الأمة لم يكن بأيدٍ أجنبية شائنة فحسب بل كان أكثره بأيدي أبناء هذه الأمة أنفسهم، فما أشدَّ عقوق أبناء ليس إلّاهم علة داء أمّهم وسبب هلاكها وأفول نجمها.

لقد بدأت المأساة بأول معول هدم ألا وهو قيام الدولة العباسية بسواعد أعجمية وطاقات فارسية، وما زال هذا الخطأ يكبر وذاك الخِرق يتسع حتى بلغ الذروة في قرار المعتصم الخليفة العباسي بإقصاء العرب عن الجيش وسائر مناصب الدولة واستبدل بهم عناصر أجنبية [فاستظهر الأتراك وأتى بهم، واتخذهم جنداً، فبطلت دولة الإسلام وارتفع عمود الفساد من حينئذٍ] .

فارتفع الحاجز الصفيق بين الرعية والجيش، وبين الرعية وقصر الإمارة وأخذت الهوة تتسع، والجفوة تزداد فكان ذلك بداية لمصرع الأمة وإيذاناً بانهيار بنيانها.

فما أخطر أن يدافع عن الأمة رجالٌ ليسو من أبنائها، وما أسوأ أن يقوم على أمرها أمراء ليسوا منها.

ومن نتائج تدبير المعتصم هذا أن تتابعت على أمتنا ألوان وصنوف من الدول الأعجمية فتوالت على قيادها دولة بني بويه ثم دولة السلاجقة ثم دولة المماليك فالدولة العثمانية.

وقد بلغ الأمر سوءاً أننا قلّما نجد للعباسيين وزيراً غير أعجمي، فقد كان هؤلاء الوزراء الأعاجم يستأثرون بشؤون الخلافة ويرقون إلى أعلى المناصب وقد أحكموا للعباسيين هذا النظام وصاغوه صياغة ساسانية فارسية.

والآن ما دمنا نتحدث عن ظاهرة « العجمة » في الدولة ألا يتبادر إلى الذهن هذا السؤال الصعب:

كيف نتحدث بالقومية وندعو إلى عصبية، وإسلامنا قد أذاب في بوتقته كلَّ أخلاط العصبيات والقوميات ؟

وفي الجواب نقول: إن اعتزاز المرء بأمته وحبه لها وقيامه بأمرها وتفانيه في خدمتها ليس فيه شيء من العنجهية القومية أو العصبية الجاهلية. إن النزعة القومية لا تكون في ذاك بل تكمن في التعزز القومي والتعالي المذهبي والاستخفاف بشأن الآخرين وازدرائهم والتقليل من شأنهم وهذا ما لا نرتضيه ولا نعتقده ولا ندعو إليه.

إنَّ المطـب الكبير الذي وقعت فيه الأمة والمنزلق الخطير الذي انزلقت إليه أنها أوكلت أمورها وأسلسـت قيادها إلى أمراء ليسـوا منهـا ، وانضـوت تحت فسـطاط إمـاراتٍ أعجمية ، وأمسـت إمارة صغـيرة ، لا تعـدو كيانـاً ضئيـلاً في مجتمع كبير يمـوج بأخلاط كثيرة من الأمم والشعوب.

نحن لا ننكر إسلامية تلك الإمارات ودولها المتتابعة والتي انضوت أمتنا تحت مظلتها ، ولكن يحق لنا أن نتساءل في الوقت نفسه:

مَـنْ منّا يقبل أن يشـرف أخوه على أمور أسـرته ويقـوم برعاية أطفاله وفيه رمق يجري وعرق ينبض، مع أن ذلك الراعي هو أخ كريم، وكلاهما سليل أم واحدة وأب واحد.

فما بالك إن كان ذلك الراعي غريباً لا تربطه به آصرة دم ولا صلة من جوار ؟!

هذا المثال هو صورة الحياة السياسـية التي عاشـتها أمتنا منذ مطلع القرن الثالث عصر المعتصم إلى نهاية الحكم العثماني.

وليس المقصود مما أشرت إليه أن نقطع الوشائج ونمزق الصلة بين أمتنا وبين إخوتنا من الشعوب الإسلامية الأخرى ولكن ما أريده أن نجعل من قوله تعالى

« **وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم** » (الحجرات / ١٣)،

منهاجـاً ودسـتوراً ونظاماً تقـوم عليه العلاقة بيننا وبين سـائر الأمم

الإسـلامية، لقـد كانت تلك الآية رسماً للمعـالم وتصويراً لملامح العلاقة بين الأمم الإسـلامية. وأعظم بها من علاقة، إنَّها صلة تعاون وتعاضد، وأخوّة ومودة وعلاقة تنسيق وتنظيم!...

لقد أورثتنا سياسـة « عجمة الدولة » مواريث سـوء ما زلنا إلى الآن نحصد من زرعها الشوك ونجني من جناها التقهقر والخذلان.

فمن سـوء تدبيرها غابت صورتنا وفقدنا هويتنا وسـقط اسمنا من ذاكرة العالم، فمنذ أخريات الحكم العثماني لم نعرف باسمنا الحقيقي « أمة العرب » لأننا خرجنا من مسـرح السياسـة الدولية بل أصبحنـا نُكنَّى بـ « تركة الرجـل المريض » كما صار يطلق علينا الآن لقب « الشرق الأوسط ».

وفي كلا اللقبين تمويه وتعمية وإغفال كما لو أردنا استصغار شأن امرئ فنقول عنه: هو « فلان بن فلان » وإذا ما أوجسنا منه ريبة قلنا: إنه « لكع بن لكع »!.

فإنَّ فقدان الاسم يؤدي إلى فقدان الهوية، وهذا هو سر سياسة الطمس والتغييب التي تجلَّت في محاولات الفرنسة والتتريك والتهويد التي ابتُليت بها أمتنا كلّما ظهر علينا عدو وهي تعدل في مسـاوئها وأذاها سياسـة « عجمة الدولة » أو الشعوبية المقيتة التي ظهرت منذ مطلع العصر العباسـي وما زال خطرها يتفاقم ويتفاقم إلى أن قادنا إلى المصير المشؤوم الذي نشكو منه اليوم!.

وليس هذا فحسب فإن من نتائج سياسة العجمة خلود الأمة إلى الراحة والكسل واستمراءَها حياة الدّعة والترف مما زادها ضعفاً وأورثها خبالاً، فأمست كلَّما تعرضت لغزو غازٍ تلتمس العائذ وتبحث عن النصير، وإني لأتساءل متحسراً يائساً ما نصيب أمة العرب من انتصارات صلاح الدين في حطين، وأمجاد قطز في عين جالوت وثارات ملكشاه في لازورد ؟

إنِّي لأجلُّ قادة هذه المعارك من أبطال الإسلام، وأحترم كلّ مجاهد شارك فيها، ولكنني في الوقت نفسه أطرق خجلاً عندما أسأل التاريخ وقد انتابني شعور بالتقصير والخيبة ما مدى مشاركة أمتي في معارك الشرف هذه جنوداً وأمراء ؟

لقد طال علينا الأمد منذ عهد «المعتصم» فأصبحت خطواتنا أبطأ وصارت حركتنا أثقل، وباتت نظرتنا إلى قمم المجد أخفض!!!

وما ذاك إلا السياسة الخرقاء بإقصاء العرب عن الحكم والدولة والسياسة بل عن المدنية والحضارة، وإقامة دعائم الدولة الجديدة على سواعد فتيان مماليك الترك!

وليت أمر أمتنا قد وقف عند هذا الحد، فقد ابتُليت بأمم غازية هي أقل حضارة، وأصغر شأناً وأضحل ثقافةً بل أكثر بداوة وأعظم جهالة نزلت عالةً علينا ولم تستطع أن تقدم لنا علماً أو حضارة بل قيّدت خطونا وأعاقت تقدّمنا وضيّقت واسعنا، على حين أفادت

أمم أخرى ممن غزاها أو استعمرها بناءً على سنة الحياة أن يأخذ الضعيف عن القوي!.

ولتوضيح هذا المعنى من شواهد التاريخ نفسه نشير إلى ظاهرة المماليك في تاريخنا القديم، فقد قدّر لهذه الأمة أن تخضع لسلطان المماليك وفي هذا خضوع لسلطان العبيد ــ وأقبح به من خضوع ــ فقد يُلتَمس العذر لمن كان سيده نبيلاً أو شريفاً ولكن كيف نلتمس عذراً لمن كان سيده عبداً أو سوقة، بل كيف نجد معذرة لأمة أسلست قيادها وسلمت زمامها لفئة من المماليك وعصبة من الأغراب ؟!

وليت الأمر وقف عند هذا الحد فإنَّ المضحك والمبكي من وقائع الحياة جعلنا نُحكَمُ مِنْ عبيد العبيد، فانظر كيف يكون حالك إذا كنت عبداً لعبد أو خادماً لخادم أو كان سيدك عبدُ عبدٍ، ولتوضيح ذلك يحدثنا التاريخ أن الخليفة العباسي في بغداد يتخيّر من مماليكه وعبيده الوالي على أحد الأمصار أو عاملاً له على بلاد الشام أو مصر أو المغرب، وكان هذا الوالي المؤمَّر يكسل عن الذهاب إلى مكان الإمارة مفضلاً البقاء في بغداد مؤثراً قرب الخليفة فيرسل بدوره أحد مماليكه أو عبيده الأرقاء لينوب عنه والياً على مصر أو الشام أو غيرها من الأمصار الإسلامية.

هكذا كانت ملامح الوضع السياسي المظلم منذ العصر العباسي الثاني، وليس منذ عصر الدول المتتابعة كما يشاع، وما زال هذا الظلام البهيم مطبقاً حتى بزوغ عصر النهضة، حيث

أُطفئت شـعل الإباء في الصدور وأُخمدت جمرات العزة في النفوس!.
وما زال الأمر يتردّى حتى بلغ مبلغاً جعل نقاد الأدب يعجبون من أنهم لم يجدوا قصيدة رائعة تتغنى بأمجاد حطين وتحرير بيت المقدس في مستوى قصيدة قلعة الحدث للمتنبي أو قصيدة عموريّة لأبي تمام مع أن انتصـار حطين وتحرير بيت المقدس أعظم مجداً وأكبر قداسـة وأوقـع أثراً في نفوس العرب والمسـلمين من فتـح عمورية أو معركة قلعـة الحدث، وقد فـات أولئك الباحثين أن الأمـة العربية في عصر الشـاعرين الكبيرين كانت ومازالت تتّقد فيها جذوة الإباء ويسري في أوصالها الشعور بالعزة والكبرياء.

أمـا جماهير الأمة في عهد صلاح الدين فما زالت تسـري فيها لوثـة العجمة التي ولغت فيها دولة بني بويه وأخلاط الترك وأوشـاب المغـول والأعاجم مما هبّ ودب فقد روّى البويهيون أرض العروبة ذلاً وانكسـاراً وهوانـاً انتقاماً لانتصـارات «ذي قار» ذلـك اليوم الذي انتصفت به العرب من العجم[1].

لذلك لم نجد في عصر صلاح الدين شـاعراً فيه أنفة المتنبي أو شموخ أبي تمام.. وقد بلغ الأمر مبلغاً كبيراً من السوء أن جعل البطل صلاح الدين يُعِدُّ جيشـه إعداداً خاصاً قبل بدء معركة الشـرف إذ طهّر عقول جنده الشـباب مما عشـش في المجتمع مـن أوهام الجهل

(١) ـ « هـو يوم انتصفت فيه العرب من العجم » من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم حين سئل عن يوم ذي قار ـ انظر سيرة ابن هشام.

والشـك والضلالة وطهّر مشاعرهم من المشـاعر المريضة والخواطر السقيمة كالشعور بالهزيمة والضعف والانكسار والخذلان.

إن الأمـة لم تهـو فجأة من عل، ولم يكن سـقوطها سـقوطاً سـريعاً كما يظن بل كان سـقوط مراحل وتقهقر خطوات في توالٍ وتتابع حيث كانت الأمة تنزل درجة درجة وتتردّى دركة دركة، فلم يكـن خنق طائرها بوقت واحد ولحظة آنية بل كان الخنق بطريقة خبيثـة وأسـاليب ماكرة منذ أن بـدأ المعتصم بنتف الريشـة الأولى حـين أقصى العـرب عن الحكم والدولة والسياسـة بـل عن المدنية والحضارة حين استبدل بهم طوائف الترك ومماليك الأناضول فعادوا إلى مرابعهم وأطلالهم وتقهقـروا بعيداً في أرجاء بيدائهم فانكفؤوا علـى أنفسـهم يتجرعون الغصـص ويجترون الذكريـات! على حين أخذت الأمم من حولهم بأسباب التقدم والحضارة ونصبت إلى العلياء سلالم التقدم والارتقاء والعلو.

فـلا عجب مما أقدم عليه المعتصم وسـائر خلفـاء بني العباس الذين قامت دولتهم على سـواعد أعجمية وخيول فارسية؛ لأن أولئك الخلفـاء في معظمهـم قـد رضعوا العجمـة من أثداء أمهـات إماء لم يُعرف لهنَّ أصل ولم تُشتهر إحداهنّ بمكرمة!.

فللـه در أبـي الطيـب فهـو الوحيد من سـائر الشـعراء ورجال الفكـر الذي تنبّه إلى دقائق هذه المسـألة، ولفت النظر إلى خطورة هذه الظاهرة التي عصفت بكيان الأمة.

لقد كان أبو الطيب المتنبي ابن الصحراء البار، رضع مع لبنها الصافي قيم البداوة والأصالة، ولكنّ صيحته المدوّية مع الأسف كانت صيحةً في واد، لم تلبث أن تلاشت، ثم ذهبت أدراج الرياح، لم يُنصت إليها، ولم يُعبأ بها!..

لا تقل شيئاً، دعنا نرى!!

نائب روماني

لا تقل شيئاً

بات شائعاً في مجتمعنا داء المنابر وتصدر المجالس واشتدت عند فرسان الكلام شهوة الكلام وشاهية الخطاب، والحرص على ملء العيون والأسماع، وتحريك الأكف بالتصفيق والإطراء.

وليت في وسع أولئك أن يقولوا ما ينبغي أن يقال!.

فكلامهم لا يكفكف دمعة ولا يبعث بسمة، وخطابهم لا يروي نهماً ولا يقوّم اعوجاجاً.

فما هم في ميزان المعرفة إلا قُصَّاصاً أو واعظين أو سرّاد حكايات، وفي ميزان الفضل أدعياء شعارات أو هائمو أودية.

فإذا ما دخلوا في موضوع لا يحسنون منه الخروج، وإذا ما أضاؤوا فيه جانب أظلموا جوانب. وإذا ما يمّم الحقّ شرقاً اتَّجهوا

بباطلهـم غربـاً ومـا يزالـون يتكلمون ويتشـدقون ويثرثـرون حتى يتركـوا السـامع يقطف من زرعهم شـوكاً ومـن معرفتهم ضحالة ومن حكمتهم ضالة ثم يمسـي في حيرة من أمره حيث تضيع أمامه الحقيقة وتنبهم حوله السبل!.

وقد تفاقم هذا الداء وانتشر وذاع حتى أصبح من لوازم الأفراح ومجالـس العزاء وما زالت أعاصير هـذا الوباء الخطابي تلاحقنا في كلِّ مكان حتى مجالس المآتم ومجتمع العزاء حيث الألم والحزن، فـإذا ببعض الناعقين لا يرى بأسـاً أن يفسـد صمـت المجلس وينال مـن وقار المقام بكلام لا طائل تحته وهـذرٍ لا نفع فيه فيقطع علينا تأملاتنا في حقائق الموت والحياة، ويسدّ علينا منافذ البصيرة المشرعة على ظلال الحزن وإيحاءات المأساة.

وليت سيرة الناعق تشفع له، وليت الخبر يطابق المخبر!..

وهذا الذي نستشـعره ضيقاً جسّـده فيلسوف فطن حين وقف في جلسـة مجلس الشـيوخ معترضاً علـى امبراطور روما عند تـلاوة بيانه الإصلاحي بمناسبة توليه العرش « لا تقل شيئاً يا سيدي دعنا نرى »!.

لقدابتُذلـت الكلمة أيَّما ابتذال وامتهنـت منابر الخطابة أيّما امتهان!. وما عاد يجدي تشـدّق الخطباء ولهاثهم وراء الكلام المنمّق والخطاب الإنشائي البليغ!.

فـإذا كنّا نطرب للكلمـة البليغة فإننا إلى الكلمة الشـريفة أظمأ.

فالأزمة ليســت أزمة بلاغة وإنشــاء بل أزمة شــرف والتزام! بل أزمة عبارة صادقة تســاير الفعل وتطابق السيرة، فنحن لا نحتاج إلى ألفاظ تطير في الهواء بل إلى ألفاظ تمكث في الأرض وما يمكث في الأرض هو الأنفع، وحسن ذلك مقاماً!..

حسبكم من ذكر عمر ابن الخطاب فإنه إزراء بالولاة ومفسدة للرعية

عبد الملك بن مروان

هموم الخلفاء

كلُّ من خبر الحياة وتوالى عليه إمساؤها وإصباحها، يعلم أنّ أقصى ما ترقى إليه الأماني وتصبو إليه الأحلام، أن يتساقى المرء كؤوس السرور والرغد خالصة هنيّة، ويرتشف خمرتها هنيّة خالصة لا تشوبها شائبة، ولا يتجرَّع معها غصة!.

وليس كالخوف مَنْ يعكِّر صفو الحياة التي نضنُّ بها، ويرنّق شرابها الذي نحرص عليه، وذلك لأن القلق الذي هو آية الخوف جرس صاخب مرعب يدقّ في عالم المرء فيفسد عليه هناءته ويغدو كمن يخرجك من حلم وردي أحببتَ أن تسترسل فيه، أو يصوِّح زهرةً طالما رغبت في قطافها، أو يطفئ سراجاً آثرت أن تستنير في ضيائه.

والخـوف لا يأتـي الناس على هيئة واحدة، ولا يلوح للعيان على الصـورة ذاتهـا، فهو كالداء المخامر يصيب أشـخاصاً عدة ولكن لكلٍّ من آلامه نصيب ومن أذاه قسمة.

فالفتـى اليافع يقلق إذا ما لاحت له عوارض الكهولة والوهن، والحسناء الفاتنة تفزع إذا ما شعرت أن الدهر سينال حسنها بمكروه فيصير لا محالة إلى ذبول.

وصاحب الجاه يخشـى على جاهه من نـوازل الخطوب وعوائد الأيام.

وهكذا هكذا الشحيح على ماله، والرضيع على ثديه و...

فصور الخوف لا تنقضي، ومشاعر القلق لا تنتهي!.

فما أصعب السلب بعد العطاء، والاسترداد بعد المنح!

فـإنَّ النعم التي تُخلع على الإنسـان والآلاء التي تحفّ به تصبح بعضاً منه أو جزءاً من كيانه فهي منه لصيقة الشغاف نزيلة الصدر، وتغـدو مع الوقت بمنزلـة الروح، في خروجها الفنـاء، وفي غرغرتها الموت!

وإذا ما رغبنا أن نجسد هذا المعنى في صورة وأن نجلي ملامحه في مشهد، فلنتأمل في قول الخليفة الأموي أعلاه، فإنّ الحرص على الإمارة والاستئثار بالجاه شعور يساور الأمراء في كل حين وآن، وما ذاك إلا لأن الإمـارة صعـب فطامهـا، ومرعبٌ انقضـاء أيامها وذلك

للـذاذة مذاقهـا ، وإقبال الدنيا معها ، لهذا يحـرص أولئك أن يبعدوا عنها كل ما يهدد سلامتها ،أو يصيب صفوها بكدر!.

وهـل هناك مـا هو آذى للأمراء من ذكر سـيرة عمـر وأخبار العـدل والعدالـة ؟ فإنّ هذا سيفسـد الرعية ، ويحرضهـا على أولي الأمـر عليهـم ، فضلاً عـن وضع الإمـارة على محرقـة الموازنة ، وما أصعـب الموازنة بين أمرين؛ لأنَّ على صفحتها تتَّضح ملامح الأشـياء وتظهر قسـماتها جلية للعيان ، فليس كالموازنة كشـفاً للسـرائر ، وذيوعـاً للأسـرار ، ونشـراً للمخبآت ، وظهـوراً للسـوءات فبضدها تتمايز الأشياء!.

لحظتئـذ ينصع الأبيـض ، ويقتم الأسـود ، ويتصاغر الصغير ، ويكبر الكبير.

فهلا أدركنا الآن سـر مخاوف الخليفـة الملك ،وعلّة قلقه على جاهـه ومقعده فإنّ الأمر لا يحتاج إلى إعمال فكر أو كدّ ذهن فها هي ذي نفسـه القلقة بادية أمامنا جلية الملامح ، واضحة القسمات ، مشرعة الأبواب!!

أنـت الـزمـان، فـإن صلحت
صـلـح، وإن فـسـدت فسد

الأحنف بن قيس، حينما سأله معاوية عن الزمان

إنا عرضنا الأمانة

لا شـيء أثقل علـى النفس وأضيـق للصدر من حمـل الأمانة، وأداء الواجـب! ومـا ذاك إلا لأن في حملهـا بذل للجهـد، وفي أدائها إعياء للفؤاد.

فـلا تفتأ الأمانة تتطلب منا توقداً في الطاقة ووفرة في النشـاط، ممـا يجعل الكثيريـن يعرضون عنهـا ويتخففون مـن أعبائها مؤثرين الأمان، لاهثين وراء الراحة والسلامة وقد فات هؤلاء أن دون ذلك طيب الجنى وحلاوة الثمر، وأن الراحة لا تنال إلا على جسر من التعب.

ولعـل العلة الكبرى في هذا الإعراض هو النظرة القاصرة التي تقـف عنـد ظاهر الأمـور دون أن تلج إلى داخلها أو تسـبر أعماقها، فلا يتبدى لأعينهم إلا غواشـي العنـاء والنصب الذي يحجب ملامح السعادة ولذاذة السرور التي تعقب أداء الواجب والقيام بالمسؤولية.

وليس حمل الأمانة وقفاً على فرد دون فرد أو على شـريف دون وضيع فكلٌّ له في ذلك نصيب وعليه في ذلك واجب!.

فليـس المجتمع إلا آلة كبيرة لا تـؤدي مهمة، ولا تنجز عملاً، إذا لم يكن كلّ جزء من أجزائها ماضٍ لما هو ميسّـر له، منجز ما خلق له بإتقان ويسر في انسجام كامل مع سائر الأجزاء في تلك الآلة الكبيرة أو ذاك الجهاز العظيم.

أليس هذا الكون العجيب من حولنا شـبيه بتلك الآلة العجيبة في أنَّ كلّ كائن فيه قد حمل الأمانة وأدّى المهمة في أحسـن صورة وأكمـل وجه بـدءاً من دودة الحقل الـتي تفتت التربة للنـور والهواء وانتهاءً بالرياح التي تسوق الغمام وتزجي السحاب ؟

فما الكـون في وحدته وتناغمه إلا قصيـدة تكاملت وحدتها وتناغمت أجزاؤها فكل ما فيها يصدر عن نفس مشوقة اضطرمت مشاعرها وأومض فكرها.

ولكن هل يجوز أن نتخطى هذه الفكرة الرفيعة دون أن نشير إلى أن نصيب أفراد المجتمع من أعباء حمل الأمانة ليس واحداً فكلٌّ امـرئٍ مهمته على قده، وإنجازه على شـاكلته، فأمانته حسـب ما يطيق، وحمله قدر ما يحتمل!

وإنَّ نظرة خاطفة إلى تاريخ البشرية نلمح فيها مصداق ما نقول، ألم يكـن الخليفـة الزاهد عمر بن عبد العزيـز خير من حمل أمانة

الخلافة فأجرى الله على يديه قضاءه وقدره في نشر الرخاء والرغد والأمن والسرور في أرجاء الدولة حينما كان أهلاً لذلك.

ونقول بالمقابل ألم يكن الخليفة المعتصم المعول الأكبر في هدم صرح الأمة بإقصاء العرب عن الحياة السياسية والمحافل الدولية وإعادتهم إلى عيش البداوة وربوع البادية وتسليم زمام الأمة إلى مماليك من الأعاجم والأغراب ؟

ذاك الخطأ الفادح الذي ما زلنا نجني أشواكه إلى الآن!.

إنَّ الأمثلة كثيرة في صفحات التاريخ، نلمح في كلِّ عصر من عصوره ظلال ولي الأمر على قسمات الأمة إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فإذا كان خيّراً عم الرخاء فطاب العيش، وإن كان فاجراً ساد الظلام وضاق العمر، إنَّه كربِّ الأسرة الذي يمتلك مصير عياله، فبين إصبعيه بلسم دائهم وطبّ سعادتهم أو سمّ شقائهم، ومدية جراحهم.

ألم يجسد علي كرم الله وجهه ذلك المعنى بقوله للخليفة عمر وقد أدهشته أمانة الجباة في حمل الغنائم: « يا أمير المؤمنين عففت فعفوا ولو رتعت لرتعوا »

لقد كان الأحنف على حقٍّ حينما استعار لفظة « الزمان » للخليفة ولي الأمة. فهو حظ الأمة في السعادة والشقاء، وقدرها في الذبول والنماء.

فأميركم نال الإمارة بالخنا

وفقيهكم بصلاته يتصيد

أبو العلاء المعري

كفتا الميزان

لا يستقيم أمر مجتمع ما إلا إذا اعتدلت فيه كفتا الميزان: كِفَّة الإمارة وكفة العلم أي أمانة الإمارة، وأمانة العلم.

فإذا رجحت إحدى الكفتين ففي ذاك اضطراب لأمر الأمة وفساد يستشري في أوصالها.

أما الداء الأول داء المنصب الذي أُبتليت به الشخصية العربية فلا سبيل إلى التحرر منه إلا إذا أدرك المرء أن ثمة أموراً لا تأتي من خارج كيانه البشري بل تنبثق من أعماق نفسه، كالشعور بالسعادة والإحساس بالعظمة.

فإذا كان المرء يستشعر في نفسه الثقة والعزَّة والعظمة فإنه يزهد في المناصب ولا يلهث وراء المنزلة الرفيعة، لعلمه أنَّ كلَّ ذلك

لا يزيده رفعة ولا يعليه قدراً ، ففي أعماق ذاته منها الشيء الكثير، والطامَّة الكبرى تقع إذا كان المرء يستشعر الضعف ويحس الدونية فإنه يلهث وراء كل منصب ويجري وراء كل منزلة!.

والطامَّة الأكبر إذا كان في المرء ظمأ إلى اللذائذ ، وجشع إلى الطيبات. حينئذ لا ينظر إلى المنصب الذي استرعاه الله إياه على أنَّه أمانة مسؤول عنها ، أو عهدة وضعت في ذمته ، وإنما ينظر إلى ذلك المقعد الذي تبوأه على أنَّه وسيلته الوحيدة التي تقدم له ما طالب من اللذائذ وما يشتهي من المتع! وما تتوق إليه النفس من الرغائب.

ولا برء من هذا الداء [داء الإمارة] إلا حينما يستشعر المرء معاني الحديث النبوي «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته..[1]» ويعيش في ظلاله.

والأمر ذاته بالنسبة لعلماء الأمة الذي عليهم أن يدركوا أنهم ملح الأمة الذي يمنع فيها كل فساد ، فإذا ما فسد ذلك الملح فأقم على المجتمع مأتماً وعويلاً.

يا عالم الدين ويا ملح البلد مَنْ يصلح الملح إذا الملح فسد

---

(١) - وإليكم نص الحديث:
« عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته » متفق عليه.

ولعل الصفة البارزة التي ينبغي للعالم أن يتحلى بها هي الإخلاص، فالأمة لا تحتاج إلى علماء مجالس وشيوخ مواعظ وخطباء أندية بل هي بحاجة إلى علماء مخلصين يؤثرون الأعمال على الأقوال، فنحن أمة لا حاجة لها إلى كلام بليغ بل إلى عمل بليغ فقد سئمتْ عبارات الإنشاء ورنين الخطب، وملّت المتفيهقين وعافت المتشدقين.

فما أجدرنا أن نجعل القول من خلال العمل، فلطالما أعرب خطباؤنا في القول ولحنوا في العمل، فهلا عبَّرنا من خلال العمل وتكلَّمنا من خلال البناء!. فنحول التصورات الذهنية والأحلام الوردية إلى وقائع عملية، وإنجازات يومية.

لقد انقضى عهد الكلمة البليغة والخطبة الرنانة إلى عهد الكلمة الصادقة واليد البانية

وليت قواعد النقد تتغيَّر فيكون التفاضل ليس على أساس الفصاحة والإعجاز بل على الصدق والإخلاص حتى لو كانت اللفظة عامية والعبارات أعجمية.

فالعياذة بالله من كلام فصيح لا ينطوي على شيء، ولا يحمل أي شيء.

نحن لا نفسر اليقظة
فكيف نفسر الأحلام ؟!

عالم حكيم

نحن لا نفسر اليقظة

رجل حكيم ممّن عرفت لم ينشأ في معهد أو جامعة بل تتلمذ على الحياة نفسها ولم يتخذ مربياً إلا نفسه، فقد تتلمذ عليها ما عاش حتى بلغ في ذلك منزلة عالية في الحكمة والتبصّر، والنظر في العواقب.

وقد اعتاد أن يتخذ من أحكام الشريعة مقياساً يقيس به الأمور ومن قوانين الفكر ميزاناً يقوِّم به الأحداث، فكان لا يقف أمام الوقائع موقف المتفرج الأبله، ولا يدع أمراً يمر دون أن يشبعه تحليلاً ونظراً. ولا يتقبَّل فكرة تُعرض أو مقولة تُقال دون أن يبدي رأياً أو يصدر حكماً. وكانت حكمته الرفيعة لا تغيب عن أنظار الصحب، ولا تخفى على مَنْ عرفه، لذلك أصبح الجميع يلقون إليه بالأسئلة، ويستفتونه في الأمور ويلجؤون إليه في المعضلات.

وفي أحـد الأيام اسـتوقفه أحد الجوار وقد اسـتبدت به الحيرة ليسأله: لقد رأيت في المنام أن...

فما تأويل ذلك ؟

فانفجر الحكيم ضاحـكاً ولكنه ليس بضحكِ فرح وغبطة بل ضحك حسـرةٍ ومرارة، وسـخطٍ وتبرُّم ثم تلفـت ينظر حوله وهو يطلق حمم الكلمات وشعل الضحكات.

نحن لا نقوى على تفسير اليقظة فكيف نفسر الأحلام ؟!

فأطرق السائل حائراً وقد أسقط في يده.

من كان حديثه عن
الطعام والنساء فليعتزل
مجلسنا فإني أكره الرجل
يتحدث عن بطنه أو فرجه

الأحنف بن قيس

من كان حديثه عن الطعام

أحلك السجن ما كان سجن اللبِّ في فكرة، وأضيق الحبس ما كان حبس القلب في خطرة!.

فالهلاك الهلاك إذا لازمت فكرة ملحة امرأً منا أو غابت في جبِّ صدره وغياهب نفسه تُحكِم قيودها وتطبق إسارها.

فإنَّ أول شرر ينال صاحبها من نارها ضيق النظرة وضعف البصيرة فلا يرى الأمر إلا من جانب أوحد أو حيِّزٍ ضيق فترتد نظرته خاوية جوفاء، ضالة مضلة، ولا سيما إذا كانت الفكرة العارضة شريرة محفوفة بالمكاره فإنَّ الأمر أسوأ والضرر أشد، فإن أفكار

السـوء نار ضاربة تحرق نفسـها إذا لم تجد ما تحرقه فإذا ما سجن الإنسـان في فكرة محدّدة أو ضُيِّق عليه في شـعور معين، فقدَ إباءه ومسخ وجوده ويرتد شبحاً بعد كيان، وظلالاً بعد عنفوان.

لذلك سـيكون من اليسير علينا أن نتعرَّف إلى الدواعي والعلل التي تجعل أنظمة الاستبداد عبر التاريخ تتفنَّن في تحقيق هذا المبتغى ليسـهل عليها تطويع الأفراد، وتوهين العزائم، وإضعاف السواعد، فتشـغل أفرادهـا في قضيـة جزئية من قضايـا المعرفة (الفلسـفة) فتصبـح هذه القضية هي المقصد وهي المحور، مما يؤدي إلى تفتيت القوى وتشـتيت المجتمع وبعث الفرقة والانقسام وخير مثال على ذلك مـا فعلـه الخليفـة المأمون في إشـغال العالم الإسـلامي بقضية خلق القـرآن بدلاً مـن صرف الجهـود وتجميع الطاقـات لتطوير المجتمع وعلاج المشكلات ودرء الأخطار.

وقد تعمد تلك الأنظمة إلى اسـتنفار الهمم وتوجيه الاهتمام إلى مشـكلة يومية تتعلق بحياة الإنسـان ومعاشـه كمشكلات الغذاء والسكن والأمن...

هـذا ما يتعلق بالاحتباس داخل فكرة أما ما يتعلق بالاحتباس داخـل شـعور فالأمـر أدهى وأمر، وأشـد مـا يتجلى هـذا الداء في شخصيات الشعراء والفنانين؛ فقد نرى استطالة شعور ما في كيانهم النفسي على حساب بقية المشاعر مما يشكل في شخصياتهم نقطة ضعـف أو موطـن داء أو بؤرة جراح، فإنّ اسـتعار رسـيس الحب في

صدر الشـاعر العـذري جعل دوره في الحياة تابعـاً وظلاً يصحو على عشق ليلى ويغفو على ذكرها.

أمّا شعور أبي نواس بالغربة فقد جعله ما عاش سكّيراً مترنحاً يحلّق في كلّ فضاء ويضرب في كل واد ويهيم في كل تيه.

ولـو رحنـا نمضي في ضرب الأمثال لضاقـت الصحائف ووهت الذاكرة ولكن حسـبنا ما ذكرناه فحسـبك من القلادة ما أحاط بالعنق.

أنَّـــا دون مـــا تــقــول،
وفـــوق مـــا في نـفـسـك

علي بن أبي طالب كرم الله وجهه

لا تزكوا أنفسكم

لا يعلو المرء إلا بمكرمة عُرف بها، ولا يرتقي المؤمن إلا بخُلُقٍ طيّب تحلّى به، فتلك هي أجنحة السمو ومطايا الارتقاء!

وهيهـات أن يبلغ المرء القمم أو يعلو على هامات الذرا بغير ذاك الجناح أو دون ذلك الخلق، فليلتمس مَنْ يرنو إلى تلك المنزلة أو يأمل أن يتبوأ ذلـك المكان الرفيـع خلقاً طيّباً أو سـجيَّة فاضلة يزيّن بها نفسه أو يتوّج بها هامته، فإذا ما استمسك المرء بذلك الخلق وتشبث بـه عـن طيب نفس وهوى فؤاد، نمَّ عنه عبـير الإخلاص وفاحت منه رائحة الفضل مهما جهد أن يكتم ذلك الخلق أو يحجب تلك المكرمة وكأنّي به لا يرضى أن يزكي نفســه، فيفاخر بمكارمها أو يجهر بفضائلها لأنّه لا يبتغي الثناء إلا من رب السماء ولا يقبل التزكية إلا من فاطر القلوب والمطلع على السرائر! { **تلك الدار الآخرة نجعلها**

للذيـن لا يريـدون علـواً في الأرض } هذا حـال الذين صدقوا مع الله يترفعون عن أن ينسـب إليهم رفيع الصفات أو عظيم الشـمائل، ولكـن متى قدِر المسـك على حبـس عبيره فلا ينتشـر ؟ ومتى قوي العطر على كبت رائحته فلا تفوح!.

وإنَّ مَـنْ يتأمل مشـهد الحياة وسـلوك الورى، يـرى أن لا أحد يحظـى بغرر المديح وفرائد الثناء إلا أصحـاب الجاه والعلو أو أرباب النعمـة والثـراء أوَ من تبوّؤا منازل الرفعة وأمسـكوا بزمام الأمور، فـإلى هـؤلاء وحدهم ينسـج رفيع الـكلام، وتُغزل أوشـحة البيان؛ لأن النـاس إلى مـا في أيديهم أطمع، وإلى نوالهـم أرغب، وإلى فتات موائدهـم أرجـى، وقد أدرك ربيـب النبوة هذه الحقيقـة الناصحة، ونفذ إلى سـريرة ذلك الرجل فأبصر ذلك الخلق الذميم في سـويداء قلبـه، فصـرخ في وجهه: «أنا فوق ما في نفسـك» من أطماع ورغائب ومقاصـد وفي الوقـت نفسـه «أنا دون مـا قلت» أي لا أسـتأهل هذا الثناء ولا أتّصف بما خلعتَ عليَّ من صفات وبما توّجت به رأسي من شمائل!.

وهـذا لعمـري طبع الرجـل النبيل! إنـه عصيّ علـى النقد، لا تسـكره مدحة ولا تثيره ذمَّة، بل يتردد على لسانه ذلك الهدي النبوي « اللهم حقق فيّ ما يقولون، واجعلني خيراً مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون ».

وإن هذا المنعطف الذي وصلنا إليه في هذا المبحث سيقودنا لا محالة إلى موضوع « المديح في الشعر العربي » ويجعلنا نتساءل عن دوره في تشويه الشخصية العربية وقتل روح النقد البناء عندها.

فلو أننا طبَّقنا منهج النقد في الأدب على منهج أسلوبنا في الحياة لوصلنا إلى نتائج رائعة وارتقينا إلى ذرا عالية.

فأبسط ما يقوم عليه هذا ا لمنهج هو معرفة الداء فالتماس الدواء، فلو أخذنا أنفسنا ومجتمعنا بهذا المنهج من حين إلى آخر لم يبق في أنفسنا عِوَج وفي مجتمعنا خلل، وهل يبقى في القاع من كان ديدنه تقويم ما اعوجَّ وتصحيح ما أخطأ ؟!

أما إذا اعتدنا أن نضفي على أمرائنا وأولي الأمر منا صفات الكمال والعصمة ونخلع على مجتمعنا صفات التقدم والعلاء، وننفي عن أنفسنا كلَّ منقصة أو عيب أو خلل، فإن مصيرنا حينئذ إلى الدون الدون، وما نزال ننحدر في الدركات من درك إلى درك حتى نصل إلى درك مظلم وننحدر إلى قاعٍ عميق حيث لا نتعرف على صواب ولا نهتدي إلى ارتقاء.

الجواد الأصيل

كان جـواداً أصيلاً يتمتع بما تتمتّع به الخيول الأصيلة عادة من قوة الهيكل ورشاقة الحركة وضمور الخاصرة وهَيَف الأطراف، بل يبزّها بتلك الغرّة البيضاء التي تعلو جبينه فتمنحه عزّة وأصالة، ومهابة ووقاراً، وبذلك التحجيل في قوائمه مما يزيده جمالاً وفتنة للناظرين!.

لقـد خُلق على أتمِّ صورة وأكمل خلق، ووُهب كلَّ حسـن إلا نعمة الحظ التي تفوق كلَّ نعمة وتربو على كلّ عطاء!.

فقدابتُليَ بسـائس قبيح النفس سيئ الطوية، خشن الطباع، لا يفـرق بين الثـرى والثريا ولا بين البعر والـدرِّ، فقد اقتناه لا ليكون زينة في السـلم وعـدة في الحرب بل ليكون بغلاً في السـلم وخنزيراً كلباً في الحرب.

واعتاد ذلك السائس أن ينقل عليه محصول حقله أو يحمل عليه أثقـال بضاعته أو يرحله متاع بيتـه. فيتعبه بما ينقل عليه ويؤذيه بما يحمل عليه. فكلُّ أحدٍ ميسر لما خُلق له.

ومـع هـذا الجهد الكبير والعـبء الثقيل الذي كان يشـقُّ به على الجواد كان يضنُّ عليه بالعلف والماء ويحجب عنه موفور الغذاء فـكان الطعام قليلاً من الشـعير البائـت والعلف الفاسـد، وكان الشراب حفنة من الماء الآسن، والحظيرة قبر مظلم أو كهف معتم.

وما زال يطالبه بالكثير ويضنُّ عليه بالقليل حتى اسـتكثر عليه الجِلال الذي يحمي صهوته من ثقل المتاع ونتوءات الصناديق وعقد الحبال وشدِّ الأمراس، فأمسى دامي الظهر، مقروح الجفن عاري المتن.

وتمضي الأيام ومع مضيِّها تسلبه شيئاً من محاسنه، وتأخذ منه شيئاً من أصالته.

فـإذا به يزداد نحولاً، ويتردّى ضعفـاً، فيبدو عليه الإعياء عند أقلِّ جهد، أو أدنى حركة، إلى أن تكاثرت عليه الأسقام فأقعدته، وأحاطت به الأدواء فشلت حركته.

فألقى عليه صاحبه نظرة تحسّـر، وهو يعض عليه الأنامل من الندم ثم تمتم ساخطاً: لو قدّمت إليه القليل لأخذت منه الكثير و..

وما كاد السـائس يتفوه بهذه الكلمات حتى عاجله الجواد برفسةٍ من حوافره القوية هشّمت وجهه وتركت على جبينه وصمة عار لا تمحى.

نأتي الخطأ ونلتمس التبرير

صوت الحياة

الحق بيّن والباطل بيّن!

ومع ذلك نأتي الخطأ، ونرتكب الخطيئة، ثم نلتمس لأنفسنا التبرير، ونجدُّ في البحث عما يشفع لهفواتنا، ويبرّر عثراتنا.

وكان الأجدر بالجاني منا الإقرار بالذنب، والاعتراف بالخطأ بدلاً من اللهاث وراء التماس الأعذار، وتبرير الهفوات وتمويه الحقائق!. فبذلك يُصلح العيب ويُصحح الخلل.

وما أرى لذلك علة إلا ضعفاً في الطبع، وهشاشة في الإرادة؛ لأنَّ المخطئ غالباً ما يتحاشى المكاشفة، ويجبن عن المواجهة.

فما أحد أقوى بأساً وأمضى عزيمة من ذلك الذي يجتهد في تأديب نفسه، ونقد ذاته، حينئذ يستطيع أن يقوّم سلوكه، ويصحّح مساره، وهيهات أن يرتقي المرء إلى هذه المنزلة السامقة إلا إذ ملك

أمره وتتلمذ على نفسه، وتعلم من أخطائه، جاعلاً من سني حياته مسودة ومبيضة.

ففي الشطر الأول من العمر حيث القوة واليفاع قد يصيب المرء ويخطئ وقد يتعثر ويتقهقر.

ولكنه في الشطر الثاني حيث النضج والثراء ينضبط خطوه وينتظم سلوكه وتتفجر حكمته، فإذا به يقوم من عثاره إذا عثر، وينهض من كبوته إذا كبا، دون أن يستنصر بناصر، أو يتكئ على ساعد.

وحسبك بذلك الخلق فضلاً! إن صاحبه لم يبلغ ما بلغه إلا لكونه ينصت لكلّ ناقد ويتسع صدره لكلّ ناصح، فلا تقوم قيامته، وتثور ثائرته وتأخذه العزّة بالإثم إذا أُرشد إلى معايب نفسه، ومخازي طبعه، وخطل رأيه.

والإعجاب بالذات والتعصب للنفس علّة ما يعاني المجتمع من تقهقر وتردي؛ ففي هذا الخلق القبيح داء المجتمع وما ينشئ فيه من خلاف وتناحر وشقاق!.

إن مكرمة النقد لا تتوقف عند نقد الذات لا تتقدم ولا تتأخر، بل هو يتعدى الفرد إلى المجتمع، أليس المجتمع مجموعة أفراد ؟

فما النقد إلا كملح الصخور ما خالطه شيء إلا منع الفساد فيه!.

فليس للمجتمع حاجة إلى خِلَع المديح وعبارات الإطراء بل هو إلى النقد الناجع والنضج الراشد أحوج.

فإذا ما أراد المجتمع النجاح فعليه أن يقوّم كلّ تجربة يقوم بها ويثمن كلَّ خطوة يخطوها، إذ العودة إلى الصواب أجدى من الاسترسال بالباطل.

وليكن لنا في النقد الأدبي أسوة حسنة ومثال يحتذى فإنَّ الناظر إلى تاريخ الأدب وسيرة الفن يرى أن لا حياة للأدب دون نقد ولا ارتقاء للفن دون دراسة.

وما خواء الساحة الأدبية في بعض عصور تاريخنا إلا لغياب النقد واحتجاب الدراسة.

إنَّ في النقد فطرة بشرية، فما حياة الإنسان في رحلة العمر إلا مسودة ومبيضة.

الوطن والمجتمع

فـلـلـه هـاتـيـك الـربـا وربـوعـهـا

فإني قد ضيعت في تربها القلبا

الشاعر المهجري رشيد أيوب

فلله هاتيك الربا وربوعها

ليس الوطن أرضاً تفترشـها، وسماء تسـتظل بها فحسـب، إنّه الحضـن الدافئ الذي تلوذ به، والحصـن المنيع الذي تأوي إليه، إنّه الأرض التي منحتك قطوف أشـجارها، ورحيق ينابيعها، إنّه السماء التي أنارت دربك مصابيحها , وأضاءت ليلك قناديلها.

فله منَّا الحبّ كلّ الحب، والشـكر كلّ الشكر، فآلاؤه لا تحصى، وعطاؤه لا ينفد وفضله لا ينقضي.

بنفسي أنت أيها الوطن يا مرتع الطفولة، يا ملتقى الأحباء، ما أطيب ريّاك! هواؤك عليل، ونسيمك بليل!

سماؤك صافية، ونجومك زاهرة!

جبالك شامخة، وأشجارك باسقة.

كـم ينازعني إليك الحنين فإنَّ النفوس إلى مولدها مشـتاقة، وإلى مسقط رأسها توّاقة.

ليسـت أرضـك صخـراً وتراباً بل هـي ملاعـب الصّبا ومجمع الأخلاء!

وليسـت أنهارك ماءً فراتـاً، بل خمراً زلالاً، وكأسـاً دهاقاً، وليـس هواؤك ريحاً تثور، بل أنفاس رياض، وفوح أزهار، ما أسـعد من يحيا في حماك! وما أطيب العيش في رباك!

نغفو على تلألؤ بدرك، ونصحو على بهاء فجرك نكحّل الجفن بحسـنك، ونترع القلب بحبك وحسـبنا فخراً أننا شعاع من شمسك، وفرعٌ من دوحتك!

وحسـبك فخـراً أنَّ حبك من الإيمان، ومَـنْ يبذل لك دمه فإلى جنان!

وكيف نجحد فضلك أيها الوطن، وفضلك قد وسع كلّ شيء فأصبحنا منك ولا رغبة لنا بشـيء، ولا مطمع لنا بمزيد. لقد وهبتنا يا وطني كلّ شي حتى جمال الملامح، ورقة الطباع، فها أنت ذا قد وسمتنا بمسـيم حسن لم يتصف به سـوانا، فمن بهاء شمسك سمرةُ الجباه، ومن شموخ جبالك أنفة الشباب، ومن حمرة وردك خفر ربات

الخدور، ومن سواد ليلك وبياض فجرك حور العيون وسحر الجفون، فلستُ يا وطني إلا بضعة منك، عنك انفصلت، ومنك انبثقت!

فبيننا وبينك حرمة النسب ولحمة القربى!

يا من توحّد ولا تفرق وتجمع ولا تشتت، فإذا أبناؤك لا يدينون إلا بحبك، ولا ينضوون إلا تحت لوائك.

يتحلّقون حولك كما يتحلّق الصبية حول أمهم التي تنشر عليهم جناح الحب والمرحمة، فتؤلف بين قلوبهم، وتبثّ فيهم روح التعاون والتعاضد وتحضّهم على طرح الفرقة والتنابذ. فيصبح الجميع في حبها إخواناً.

ما أحبك إلى الأفئدة أيها الوطن! وما أعظم حقك علينا! فإنّ لك حقاً علينا وأيّ حق، فآلاؤك متتابعة، ونعمك سابغة فليس سواك جدير بأن نفديه بالمهج ونبذل له الدماء، وها نحن أولاء نبني صرحك، ونزود عن حماك، ولك علينا عهد لا يُنكث، وقسم لا يُحنث ألا نرحل عنك أو نهجر حماك، وسيظل القلب يخفق بحبك، ويهتف باسمك، ما دام ينبض بالحياة!.

لا قيمة لما تعطيه ما
لم يكن جزءاً من ذاتك

جبران خليل جبران

لا عطاء إلاّ من الذات

أمي

يا زهرة الوجود

يا ثريا السماء

يا منحة السماء

يا بدر الليالي

أمي

يا من لا يبلى حبّها، ولا ينضب عطاؤها

إذا ذكر الحب فأنت ربته، وإذا ذكر الإيثار فأنت صاحبته

يا ذات الصوتِ الدافئ واليد الغراء والنظرة الحانية

يـا مَنْ صدرك أرحب من السـماء الصافيـة، ووجهكِ أبهى من الزهرة الناضرة وقلبكِ أنقى من الجدول الرقراق!

أمي

يا كنزي المدخر ويا ملاذي الأوحد حين تنبذني الحياة ويَنْفَضُّ من حولي الورى

أنت التي أوصى بها الإله، ودعت إلى تكريمها السماء فقالت: أمّك ثم أمّك ثم أمَّك

أنـتِ الـتي جُعلـتِ الجنـة تحـت أقدامهـا! ورياضُهـا محفوفة برضائها!

أمي الحبيبة

مبارك عليك عيدك! فها نحن أولاء نزف البشرى إلى المرأة التي نسيت نفسها ونهضت بأبنائها.

وإلى الملك الطاهر الذي لا يرجو لحبه أجراً، ولا يلتمس لعطائه ثواباً.

مبارك عليك عيدك يا أماه! إنّه عيد الأم عيد أزهار تفوح بعطر المودة والبذل، وعيد أفنان مثقلة بالثمر والعطاء!

إنّه عيد سحابة ينهمر غيثها مودة ورحمة، سحابةٌ تعطي ولكن في عطائها فناؤها!

أمي الغالية: ما أحلاك! ما أعظمك!

على سرير الآلام ولدتني، وبأيدي العناية ربّيتني، وبعيون السهر والقلق رعيتني، وبصدر المشقة حميتني، وبكنف الإيثار أحطتني.

جهدك كبير لا يماثله جهد، فلا يثنيك شيء مهما غلا عن أداء الواجب والاضطلاع بالمسؤولية!

بوركت يا أماه وبوركت يدك الطاهرة التي تطهو وتطعم، تكوي وتغسل، تنظف وترتب!

ويا لهف نفسي عليك فقد كدّكِ التعب، وأضناك السهر، وأنهكَ قواك الواجب.

فأنا ما حييت مَدين لك، فإنّ فضلك قد غمرني ومعروفك قد أظلني، فأنى لي أن أرد جميلك ؟! أو أكافئك على صنيع قد طوَّق عنقي ؟!

هيهات هيهات!

فما أجدرني أن أكل ذلك لربِّ السماء، فمن سواه أحق بالأجر والمثوبة ؟!

ومن سواه يوفي الصابرين أجرهم بغير حساب ؟!

ما أعظم عطاءك يا أمي! أنت تقدمين للمجتمع أعظم ما يحتاج إليه: تقدمين إليه ما هو أعظم من الصنائع والمخترعات، إنّك تربين

الأشبال الذين سيكونون سياج الوطن، إنك تعدين للحياة شباباً مؤمنين أوفياء.

يعشقون الحرية والفضيلة، ويحبون العمل والإبداع، ويدافعون عن الحمى والأوطان، إنك المدرسة التي يتلقى فيها الطفل أولَ دروس الحياة.

إنَّك الينبوع والعرين

يا مَنْ تهزين السرير بيمينك، فيهتز العالم بشمالك!

وماذا بعد يا أماه، فليس لدي كلام يحمل لواعج الفؤاد أو يرقى إلى الثناء على من هي أغلى من الفؤاد، فلو قُدِّر لحنانك أن يكون نهراً لروّى الكون بعذوبته!

وكلّ ما أتمناه أن يطول عمرك، وأن يبقيك الله ذخراً لنا حتى تكتحل العين بمرآك صباح مساء.

فذاك لعمري أمنية أغلى من امتلاء الخزائن بالذهب والنفائس! جزاك الله عنا كل خير وأجر ومثوبة!

ودمت لنا

ابنك المخلص

الحر عبد إذا طمع

سُـئل حكيم فاضل مـن الظرفاء عن علّة الأزمات، وأسـباب المشكلات التي تعاني منها البشرية ولا سيما الاقتصادية منها.

نظر إلى السائلين فإذا كلٌّ منهم بادي الإعياء، حائر الفكر، ظاهر القلق يرسـل اهتمامه في هذا الركود الثقيل الذي يهدد بفقر ومجاعة، فلا يهتدي إلى ذلك سبيلاً.

ابتدأ الحديـث فإذا الأنظار ترنو إليـه، والأسماع تتلقّف بلهفة كلماتـه فقـد أدرك الجميـع أن الصـدق سـر الظـرف في حديثه، والجذب في خطابه، والدفء في عباراته.

اعلمـوا يـا أصحابي أولاً: « أن كلَّ مشـكلة حولهـا منتفعين هيهات أن تُحلّ » .

هذا مبدأ رئيس في حلّ المشكلات وعلاج المعضلات، فهو لا يتعلق بشؤون الاقتصاد فحسب بل في كلِّ أمرٍ من أمور الحياة، فهو مفتاح المعضلة، فيه حلّها وبه انفراجها.

أمَّا الخروج من المشكلة، وحل عقدتها فأمر بسيط لا يحتاج إلى كد ذهن وإمعان فكر بل إلى وعي ومعرفة وإخلاص نية، دققوا معي في أبعاد هذه الحكاية فستعرفون المدخل ولسوف تهتدون إلى المخرج.

قرية صغيرة آمنة تعتمد على البغال في نقل متاعها وانتقال أفرادها نزل بساحتها شاطر ماكر اعتاد أن يسلب الناس أنفس ما يملكون وأثمن ما عليه يحرصون، فسال لعاب الشره من فيه وثارت ثائرة الطمع في صدره، أحصى بغال القرية فإذا التعداد مئة، ثم سأل عن ثمن الواحد منها فإذا هو من الدنانير عشر.

فأشاع في الناس خبراً أن البغل بعشرين فمن أراد البيع فهو له مستجيب ،وبدأ بعض السذج ببيع بغالهم مع شدة الحاجة إليها رغبة وطمعاً فاستغل الخبيث الماكر نقطة الضعف هذه عند السكان الآمنين، فاستنهض من جديد رغبتهم بالبيع حين رفع ثمن البغل إلى خمسين.

وما زال يغلي الثمن ويرفع القيمة حتى صار البغل بمئتين.

وهكذا استطاع هذا التاجر الخبيث أن يشتري البغال كلها ويستأثر بالصيد الوفير.

ثـم أشـاع من جديـد أن البغل بـ « ٥٠٠ » لمـن يريد ، وفي الوقت نفســه طلب من أحد مســاعديه أن يروّج للبيع بـ « ٤٠٠ » دينار للبغل الواحد وأن يتمَّ البيع بعيداً عنه ، وأقبل الزُّبُن السـذج على الشـراء بـ « ٤٠٠ » بمـا عرضـه عليهـم التاجر اللص بـ « ٥٠٠ » وهم يحسـبون أنّهم يحسنون صنعاً ، وبعد أن أتمَّ اللص بيع جميع البغال بهذا الربح الفاحش عدَّ نقوده وأحصى أرباحه ثم غادر القرية إلى غير رجعة ، لا يلوي على شيء...

إخــوان الــسـوء كشجرة
الـنـار يحـرق بعضها بعضاً

ابن المعتز

إخوان السوء

لا تفتأ صلات الود بين الناس في القديم موثوقة العرا، موصولة الأسـباب تشـد أحدهم إلى الآخر وشـائج قوية وجواذب شديدة من الألفة والمودة.

حيث كانت أفنية الدور ملتقى ساهرين على سُرر متقابلين، وكم شـهدت منعطفات الأحياء ودروب الحارات لقاء عابرين التقت أكفّهمـا فتسـاقطت ذنوبهمـا، وكم تـردّدت في جنباتهـا أصداء تحيات دافئة أو رجع أحاديث شـائقة، هكـذا كان حالهم محافل عامـرة وأنديـة مزدحمة ولقاءات مسـتمرة، فقد كانـت الأحاديث تجري بينهم حلوة عذبة والبسمات تتلألأ من ثغورهم ومضات زاهية، ومعاني الإخاء تهبُّ عليهم رخية معطرة.

فقد كان كلُّ امرئ منهم كالمصباح في الثريا يشعُّ نوره على سواه ألقاً وضياءً وما زال هكذا حال الأمة حتى انهالت عليها معاول التردي فأتت بنيانها من أركانه. فتساقطت القمم، واهتزت منها القواعد، فشاع الفساد وانهارت القيم، فإذا الأقارب أباعد، وإذا الأصحاب أخصام، وإذا الأخلاء ألداء، وأصبح الناس كشجرة النار يحرق بعضها بعضاً وأصبحت صورة المجتمع كما رسمها الكندي رحمه الله:

« الأب ربٌّ، والأخ فخٌّ، والعمُّ غمٌّ، والخال وبال، والولد كمد، والأقارب عقارب «

فما داهيات المرء إلا أقاربه، وما ملمات الدهر على المرء إلا صواحبه، وقد جعلت حالة السوء هذه المناخ عاصفاً بين الأخلاء والأصحاب، فغدا كلٌّ منهم يتّقي أذى صاحبه، ويحذر حبائله ويتحاشى أشراكه، وصار ينظر إليه على أنَّه غبار يعشي العين أو ضباب يحجب الرؤية أو وعورة في الدرب تتعثر بها القدم، وتضطرب فيها الخطا فيتابع السير مكباً على وجهه مترنّحاً في سيره.

فما عاد الصديق مصدر أنس، وما عاد القريب الملجأ والملاذ، لذا كثرت أحاديث الشكوى من أولي القربى والأشياع، وخيّمت على المجالس والأندية أحاديث الشكوى، والأسف، وكلُّ امرئ يحدّث أقرانه بما فعله الآخر من نقضٍ للعهد وخيانة للأمانة وإفشاء للسر والتولي عنه يوم العسرة ونزول الشدّة!.

وليت الأمر قد توقف عند هذا الحد فلقد استطارت الشكوى إلى سائر الناس من أفراد المجتمع على اختلاف مشاربهم وتعدد أصنافهم بدءاً من الجيران إلى فجور الباعة، إلى كذب أرباب الحرف والصناعات إلى قصور بعض أولي الأمر عن حمل الأمانة وتقاعسهم عن أداء الواجب فاستحالت المحافل مآتم، والمجالس مناديب.

ولم يطق البنيان[1] هذا التصدع وما عاد يقوى على الثبات، فإذا الجدران تتداعى والسقف يهوي والبناء ينهار.

فساد الصمت، وانتشر الغبار ونأى كلٌّ بجانبه!!

وهكذا انفرط العقد، وتفرّق الصحب، ومضى كلٌّ إلى مأواه، يصاحب نفسه، فيجتر الخواطر، ويعيش على الذكرى.

---

١ ـ بنيان الأمة وكيان المجتمع.

إنَّ جهنم هي الناس الآخرون

جان بول سارتر

مجتمع السوء

مـا أصدق هذا القـول، وما أروع تصويـره للحقيقة، ليس لأنه صـدر عن فيلسـوف كبير بل لأنّـه قول الحياة نفسـها، فلا يكاد امرؤ منّا يخلو من شـانئ أو حاسـد أو ينجو من غيور أو سـاخر، بل لا يـكاد يفلت مـن مترقّب أو متربّص، فكلٌّ منا يرسـل شـره إلى الآخريـن ويسـوق أذاه إلى مَنْ سـواه وذلك من خـلال موقعه[1] الذي ارتضته له الحياة ومن مخبآت صدره الذي أودعه كلَّ ما في وسـعه من شرور، فيغدو أحدنا عرضة لسهام الأذى تنطلق من كلِّ قوس، ورشقات شرٍّ تُرمى من كلِّ يد!. وتأتي من كلِّ جهة وصوب وقد عبّر سارتر عن فكرته تلك في مسرحية « لا مخرج » / ١٩٤٤.

---

(١) ــ في مجتمع السوء: القاضي يظلم، والطبيب يعطي السم، والتاجر يخون الأمانة، والحِرفي لا يتقن العمل، والأمير لا ينصح الأمة، والعالم يموه الحقائق...»

وهـو يقـدِّم لنا ثلاثة موتى في جهنم بلا نيران، حكم عليهم أن يعيشـوا أبداً في شـقاء التوتر والبغضاء وكلٌّ منهم يرى في رفيقيه: داء ووحشة وأذى وغلظة لا أمل لهم الآن في الهرب من بعضهم البعض « إن جهنم... هي الناس الآخرون » إنّهم شخصيات ثلاث[1] كلٌّ منها تحمل من الشـر ما تحمل، وهي مكروهة غير مقبولة من سـواها، ومـع ذلـك قُدّر لهـا أن تعيش مـع نظيريها في جهنم ليسـت بذات نار ولهب ؛ لأنَّ نارها هم من يعيشون فيها من زوار جهنم هذه، ووقودها من شـرور أنفسهم التي تستعر فيهم، وشواظها من زفرات صدورهم وفحيح نفوسـهم، ودخانها مما ينبعث منهـا إليهم، فيزكم الأنوف ويخنق الصدور، إنّها إقامة قسـرية مع مَنْ لا يحفظون لك عهداً ولا يقيلـون لـك عثرة ولا يكتمون لك سـراً ولا يحملون عنـك عبئاً. ولا يعرفون لك قدراً إنّها إقامة قسـرية خالدة أثقل ما فيها أنّها قسرية، وأقسـى ما فيها أنها دائمة، إنَّ مـا يتعب المرء وما يثقل الروح ويعنت النفس ليس أعباء الحياة ولا تبعات الواجب ولا حمل الأمانة لأن آثار ذلـك كلـه لا تلبث أن تزول فيزول ما به من تعب ويسـتريح مما ألم به من عناء!

ولكـن ما يرهق الروح ويعنت النفس ويطبق على الصدر نظرة شانئ أو هزء ساخر أو غباء بليد، أو دعابة ثقيل، أو ثقل غليظ، أو يجترح في يومه سوءاً أو يجره إلى سواه.

---

١ ـ الشـخصيات هي: « جارسـتان » الغليظ المستبد، و «أينير » العاهرة المحترفة والشاذة جنسياً و« إيستل » المجرمة المرعبة قاتلة الأطفال .

وليس الموت الزُّؤام إلا أن يضمّك مع هؤلاء مجلس، أو يجمعك بهم محفل حينئذ تتشهى العمى وتتمنّى الصمم و.

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً

وحسب المنايا أن يَكُنَّ أمانيا

ولكن ألا نتمنى راجين لو قلبت الصورة على نقيض، أو أتى ذاك المعنى على عكس، ليغدو المكان أيكة، ويصبح الآخرون جنة!..

إنّها أمنية محالة، ورجاء صعب المنال!.

ولكن شرعة الإسلام جعلت الأمنية واقعة، وصيّرت الرجاء قريب المنال!

حيث طهر الأنفس، ونزع ما في الصدور من غلّ، وجعل المؤمنين إخواناً على دروب الحياة مترافقين وفي خضمِّها متآخين، وفي أرجائها متقاربين!

المؤمن ريحانة المؤمن والأخ مرآة أخيه، لا يخذله ولا يبغضه ولا يحسده، يخفُّ إليه إذا استصرخه، يقيل عثرته ويلبي حاجته ويكفكف دمعته. إنّه موضع سره، وأنيس وحدته، وسمير عشرته.

فما أسعد أبناء الإسلام، إنَّهم « في جنة... هي الآخرون » فما أعظمها من مكان! وما أقدسها من جنة!

من وضع الحبل في عنقه
انبرى الكثيرون لجره

صوت الحياة

المرء حيث يضع نفسه

للمرء خلق وشمائل كما للأرض طبيعة وجِبِلَّة، لا يتنامى فيها النبت إلا إذا كانت طيبة الثرى خصبة المرعى، فإذا ما أراد المرء الارتقاء بذاته والنجاح في حياته، عليه أن يقبل على نفسه فيستكمل فضائلها ويستصلح عيوبها استصلاح المزارع أرضه، فهو ما عاش يتعهدها بالرعاية والإعداد يسوي ثراها، ويصلح تربتها، ويستبعد الغريب الضار من عشبها، ويشذِّب ما برز وزاد من أفنانها، حتى تصبح أرضاً طيبة الثرى خصبة الإنبات.

وهكذا نفسك يا مَنْ تريد أن تستنبتها فضلاً ونجاحاً، رفعة وارتقاء.

أما إذا لم تحسن تعهد نفسك وإصلاح طبعك فستبقى العيوب فيها أدواء قاتلة، وسموماً مميتة تقصّر عمرك، وتفسد حياتك.

وما تزال العيوب تتنامى والنقائض تتعاظم حتى تصبح ثغرة في شخصك وثلمة في قناتك ثم لا تلبث أن تغدو حبالاً غليظة تلتف حول عنقك فتغري الأيادي بجرّك وتمكّن الشانئين من صهوتك، وسوقك إلى مذبح أو مجزر.

وهذا الذي يصلح للفرد يصلح للأمة، أليست الأمة مجموعة أفراد ؟

وما عيوب الأمة إلا مشكلاتها الاجتماعية التي ترزح تحت وطأتها، ومشكلاتها السياسية التي تعيق تقدمها.

فإذا لم تعالج تلك الأدواء بمنطق الحكمة والمعرفة ولم تداو بفضيلة النزاهة والإخلاص غدت الحبال ذاتها أغلالاً تُجرُّ بها المطايا لا إلى المرعى والمرتع بل إلى النطع والمذبح.

فما أحرى مَنْ يحبُّ الحياة ويرنو إلى الإرتقاء أن يسدَّ المنافذ التي يُؤتى منها ويستطبَّ من العلل التي يشكو منها وإلا فليحملها أصفاداً في يديه وأغلالاً في ساقيه.

آن لأبي حنيفة أن يمد رجله

أبو حنيفة

تكلموا تعرفوا

من عوائد الناس أن تأسرهم الطلعة الساحرة وتخدعهم الوسامة البادية، فيترك صاحب الطلعة في نفوسهم هالة من الهيبة والإجلال، وفي عيونهم أثارة من الإعجاب والاستحسان.

ولو كان أولئك الناظرون ممَّن يحسنون النظر ويسبرون الأغوار ويقيِّمون الأمور حقَّ قيمتها لحوّلوا نظرتهم من المنظر إلى المخبر ومن الظاهر إلى الباطن فيطّلعوا على طوايا الصدور ومخبآت النفوس، حينئذ تبدو بشاعة النفوس وتتراءى شيخوخة الفؤاد وخبث الطوايا بأوضح صورها!

وقد تجسد هذا المعنى موقفاً طريفاً وواقعة حادة من وقائع الحياة مع الإمام الجليل أبي حنيفة.

حيث كان يوماً في صدر مجلسه ينشر العلم ويوصي بالمكارم كعادته، وقد اعتاد أن يمدَّ رجله لداء فيها وألم ينبعث منها، وفجأة دخل المجلس رجل باديَ الوسامة، أنيق الملبس، حسن المظهر، فعرف أبو حنيفة للرجل قدره فضمَّ رجله وأحسن جلسته ثم تابع درسه يناقش مسألة فقهية في العبادات:

« ولصلاة الفجر وقت تنتهي عنده، إنه شروق الشمس » فقاطعه الرجل بغباء ظاهر: « وإن لم تشرق الشمس فماذا نفعل ؟ » فالتفت الإمام إلى الحضور وقد عاد إلى هيئة جلوسه الأولى وقال لائماً « آن لأبي حنيفة أن يمد رجله »

لم يكن أمر الرجل ليخفى على أبي حنيفة لولا أنه كان ممثلاً بارعاً استطاع أن يموّه نفسه، ويخفي مقابح طبعه وسوآت نفسه.

ومما يزيد النفس إيلاماً والحلق غصةً، أنَّ هذا الداء قد استشرى في عصرنا وانتشر انتشار النار في الهشيم واتّخذ صوراً أكثر تنوعاً، وملامح أكثر اختلافاً، وليته بقي على مستواه المعرفي القديم فحسب.

وقد تنبه إلى هذا الأمر الشائك ربٌّ من أربابه وعلم من أعلامه فأخذ يهتف ساخطاً:

« إن أصغر ممثل على مسرح الحياة أكثر براعة وأعظم تمثيلاً وأجود صنعة من أكبر ممثل على خشبة المسرح »

والمتتبِّع لأمر هؤلاء يرى أن كلَّ فرد من أفراد هذه ا لعصبة قد اتخذ لبوساً خاصاً استتر به وقناعاً صفيقاً تخفَّى وراءه.

فهذا المتصاوف المتواجد يتخفّى في لحيةٍ وعباءة، وذاك السياسي المتعاظم يتوارى في إفكه وشعاراتِهِ، وذلك الجاهل المتعالم قد احتجب في تشدّقه وتفيهقه، وغابَ ذلكم المتفلسف المتفاصح وراء قناع السفسطة والجدل وموّهت تلكم القبيحة دمامتها بمرآة وزينة وأصباغ!

وإني لأكاد أجزم بأنه لا علة لذلك التمويه والمداهنة إلا خواء الفكر ونضوب الشعور وصغر الهمة. فيحاول مَنْ كان هذا حاله أن يتخفّى بالقناع والحجاب بدلاً من أن يجتهد ليملك زمام نفسه فيرتقي بطبعه ويثقف سلوكه ويثري تجربته فيغدو ظاهره كباطنه، حينئذ يكون جديراً بالقناع الذي تستر وراءه والمنزلة التي يرنو إليها.

وإلا ستغيب الوجوه خلف أقنعتها، فلا نقع إلا على أقنعة زاهية وشخوص مموهة. فيتمنى أحدنا لو أن له ألف باب يغلقها على أذنيه، وألف جفن يطبقها على عينيه حتى لا تقع على ذلك القبح، ولا تشهد تلك الدمامة ثم يهتف بسخط: آن الأوان لأن نمدَّ أرجلاً لا رجلاً واحدة.

الفكر والثقافة

خذوا من كلّ شيء أحسنه

صوت الحياة

تخمة الثقافة

أكاد أجزم أنه لا يوجد مذهب سياسي أو فكري أو فني في الغرب إلا وله ظل في مجتمعنا، وأتباع من أمتنا، حتى أصبح مجتمعنا معرضاً لسائر الثقافات ومتحفاً لضروب المذاهب.

وأصبح حالنا حال مَنْ يقدم على مائدة فاخرة فيها ما لذَّ وطاب! فلا يدري كيف يبدأ، ومن أي الأطباق يصيب، ومن أي الأشربة ينهل.

لذلك أضحى شبابنا صرعى ثقافات، وضحايا مذاهب، فإذا بهم كلٌّ منهم في وجهة، وكلٌّ منهم في طريق.

فقد تعدّدت المشارب وتنوعت الألوان، وانطمست الحقائق! وأصبح المجتمع لوحة فسيفساء من الفكر والملل والنحل، مما زاد

في انقسامه، وتمزّق كلمته، وانبهام مقاصده، وانعدمت الرؤية الموحدة التي تلم الشعث وتجمع شتات الأمة!

هذا ما أيدته التجربة، وأشار إليه الواقع، وسار عليه منطق الأحداث وما لذلك علة إلا غياب الهدف التربوي الذي يجب أن يكون مجسّداً في شعار « كيف نفكر؟ » .

فإذا علمنا الطفل كيف يفكر نكون قد بلغنا المقصد وأصبنا الهدف. وتتجلّى تلك المهارة في تدريب الناشئ على التحليل والتركيب، والاستقراء والاستنتاج، ونحمِلهُ على تقليب الأمور على مختلف وجوهها والنظر إليها من زوايا متعددة، بعيداً عن أهواء النفس، وخارج أسوار الطائفية وأجواء العشائرية وأعراف القبلية!.

حينئذ تتكوّن لدينا تلك الرؤية السحرية التي تجمع الأمة وتلمُّ الشعث، وتقارب بين الطبائع، وتوحد على الناهلين المشارب! وترتقي بالأمة من أن تكون مجرد رمال صحراء، ينثرها أضعف نسيم وتبدِّدها أصغر عاطفة، إلى أن يكون أفرادها ثرى طيب لأرض خصبة تنبت الزرع وتجود بالخير.

خذْ وَدَعْ

ما أشبه حال هذه الأمة منذ انفتاحها على الثقافات بحال جائع نهم أمام مائدة شهية فيها ما لذَّ وطاب من أطايب الطعام وصنوف الشراب لا يدري بماذا يبدأ ولا يعرف كيف يختار، فالطعام طيب، والشراب سائغ مع أنَّ العبرة في الطعام ليست بملء الأحشاء بل بتمثُّل الغذاء.

فنحن في واقعنا الثقافي إزاء ثقافتين كبيرتين:

ثقافة الماضي وثقافة الحاضر

ثقافة الماضي بما فيها من قيم الآباء وتجارب الأجداد

وثقافة العصر بما فيها من واقعية الحاضر ومعالم المستقبل وبما تولد منها وانبثق من ملل ونحل وفلسفات.

وأمام هذا الخيار الصعب تقف الأجيال حائرة أيّ الطريقين تسلك ؟ وبأيِّ الزادين تتزوّد ؟

وأكاد أجزم بأنَّ المشكلة ليست في « ماذا أختار » ولكن في « كيف أفكِّر » فهنا مكمن الداء وموطن العلة.

فإذا ما أحسن المرء التفكير يعرف ماذا يأخذ وماذا يدع، وحتى يرتقي الإنسان إلى هذه المكرمة « كيف يفكر » يجب عليه أن يجيد التعامل مع الزمن ويفهم طبيعته ويتبيَّن ملامحه ثم يمضي مستغرقاً بأزمنته الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل.

فإنَّ فهمَ الزمن يصوِّب التفكير، ويقي مصارع السوء، ويجعل المرء أكثر قدرة على التكيّف مع طبيعة العصر، ومجابهة محنه وتجاوز صعابه، فبعض الناس ارتدوا إلى الماضي وتقهقروا إلى الأيام الخوالي يقتاتون من ذكرياته، ويعيشون على أطلاله، فهم ما عاشوا في سكراتهم يعمهون! ينتشون بذكريات خيالية، ويفخرون بأمجاد ماضية، وجوههم دائماً إلى الوراء لا يتنبهون إلى ما يعترض طريقهم من حفر وما يُنشر في دروبهم من مكائد وما يلتف حول أعناقهم من حبائل.

وبعضهم أسكرتهم طلعة المستقبل، تخامرهم أحلام زاهية وأماني ورديَّة تقرُّ بها العين وتهدأ بها الخواطر.

فهم في تخفّزٍ وتوثّب يشمرون الساعد ويقفون على الأعقاب لذا تراهم مستغرقين في العمل يكدون الذهن ويبذلون الجهد وعيونهم تتشوّف المستقبل وأعناقهم تشرأب إلى الأعلى وقد خلا خاطرهم من كلِّ مكرمة وفضل ومن كلِّ متعة وراحة ومن كلِّ بهجة وحبور يمضي بهم العمر فلا يشعرون ويتقدّم بهم السن فلا يحسّون، وتتوالى عليهم الليالي فلا ينتبهون.

وحقيق أنَّ العمل لا يُبنى إلا على قواعد الحاضر، والحضارة لا تقوم إلا على أرض الواقع، وهيهات لمن يعيش واقفاً على أطلال الماضي أو متشوّفاً إلى تباشير الآتي أن ينجز عملاً أو يحقِّق نفعاً فكيف يتنبّه مَنْ يتقلّب بين حلمين أو يتعلق بسرابين ؟

لذا على المرء أَنْ يتقنَ مهارة التعامل مع الزمن فلكلُّ مرحلة عمرية زينة من طبيعتها وسمة من دورها، فإذا ما جعل المرء من الماضي زاداً ومن المستقبل هدفاً ومن الحاضر عملاً، استطاع أن يطلَّ على الحياة من شرفاتها الثلاث، وحينئذ بوسعه أن يقطف الثمرة ويحقق الهدف لأنه استطاع أن يضبط خطوَهُ وينظم سيره ويوظف إرادته فإذا الأماني دانية والأحلام محقّقة.

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ سبأ: ١٤

مِنسأة سليمان عليه السلام

الإنسان هو الإنسان في أمانيه وأحلامه، في مخاوفه ونوازعه، في كدحه وسعيه. فكم تتشابه الأفعال، وكم تتطابق الأحوال إزاء موقف ألمّ أو حادث نزل!. مهما تباعدت أجنحة المكان في بسطها، ومهما استطال الزمان في تواليه وجريانه على مطايا الليالي عبر الحقب.

وما من ناظر في سير البشر أو متتبِّع لأخبار الأمم إلا سيرى مصداق ما أومأنا إليه، وبسطنا الحديث فيه.

فلو توقّفنا عند مشهد الموت وأزوف الرحيل في حياة نبي الله سليمان عليه السلام لرأينا عجباً، وأفدنا عبرة، فها هو نبي الله ينحني على منسأته التي حالت دون سقوطه وقد خرجت منه الروح وعادت العاريّة المستردّة إلى بارئها.

والجـنُّ يقفون كما اعتـادوا بإجلال ورهبة أمام ملكهم النبي العظيم ينتظرون أمره ويترقّبون إشارته وقد استبد بهم النصب وأخذ بهم الجزع. ولم يخطر ببالهم وهم يلبثون في العذاب المهين أنهم يجلّون جثة ويهابون صورة ويعظمون سراباً!

ويمضي بهم الزمان وتطول بهم الليالي وهم على هذه الحال من الترقـب والتوجس والرهبة، إلى أن زال الوهم وتكشّـفت الحقيقة، حـين خرّ الجثمان الطاهـر على الأرض بعد أن أكلـت دابة الأرض منسأة النبي الملك ومتكأه على الدوام.

فما أصدق هذا المشهد في تصوير ما نحن فيه من إجلال حضارة الغرب والافتتان بها. فيا لها من حضارة جوفاء خاوية بدت سـوءتها، وتداعت منسأتها بعد أن أكلها السوس وأتت عليها الأرضة، فهوت بأصحابها وتداعت بأتباعها، ونحن ما نزال كجن سـليمان ما نزال له عاكفين نقف مذهولين ونخضع مفتونين!

ولم ندر بعد أن ما نهابه وثناً، وما نجلّه شـبحاً وما نراه ملكاً بيده صولجان ما هو إلا عصا منخورة وعكازٌ مهشمة!.

فنحن لم نجن مـن تلك الحضارة إلا الضلالة والجهالة فأيدينا منهـا خواء وكل ما جادت به علينا هباء، ولم نذق من منسـأتها إلا الضرب والتأديب، وتحطيم العظام وكسر الأطراف.

فإلى متى نوقّر الأشباح ونُفتن بالجماد، ونبرّد الأحشاء بالسراب؟ وإلام نستروح عبير زهر ذابل ونستدفئ بنار استحالت دخان ؟!

مـن تــرك الأشــيــاء كما
هـي فـلـن تـبقـى كـمـا هي

أرنولد بريخت

في السكون موت

من جبلّة العاجز وبعض طبعه أن ينسج للعجز فلسفة، وللخمول حكمة لا يفتأ يرددها في كلِّ حين ويهمس بها في كلّ أذن وينشرها في كلِّ نادٍ فتخرج من فيه ضعيفة كطبعه، وانية كعزيمته.

« دع الأشــياء كما هي، وتقبَّل الأمر كما يقع، وانحنِ للريح من حيث أتت ».

ولا يــزال ذلــك العاجز الــذي قصــرت همته عــن كلِّ تغيير، وضعفــت إرادتــه عن كلِّ إنجاز يجترُّ تلك المقالــة ويلوك ذلك الإفك دون أن يدري أنَّ من طبائع الأشـياء أنها تُغَيِّرُ نفســها بنفســها وتطوّر نفسها بنفسها إن لم يقم القائمون عليها بذلك، لإهمال منهم أو زهد فيها، وكثيراً ما ترغمهم على إصلاح ما فسـد منها أو اسـتبدال ما

بلي منها ، فإنَّ من يظن أن الأشياء تبقى كما هي سقط في دركات الوهم، و غاب في غمرات الضلالة. والطريف بالأمر أنّ هذه الأشياء التي أريد لها أن تبقى كما هي تنقل العفن إلى أصحابها وتسوق الهلاك إلى القائمين عليها ، فلا ترتضي أن يصيبها البلى وحدها دون سواها أو ينال النخر منها دون أولي أمرها.

فكم استشرى الداء الدفين في البدن فقتل صاحبه حين آنس منه إهمالاً ، وكم قصم السوس شجرته إذ لم تلق إليه بالاً!.

وكم غيّب مستنقع أسن ما غيّب بأوشابه وطحالبه وطينه.

أمّا الأمة التي تؤثر البقاء على مائها الآسن وهواءها الفاسد ، ونورها الخافت ولا ترضى بالإصلاح والتجديد مطمئنة إلى الجمود والتقليد آملة بالتسويف والتأميل فإنّها تهيب بالحياة أن تنتقل عنها وتحث التطور أن ينكفئ عنها. وإذا ما استسلمت إلى سباتها الشتوي واستطابت اجترار كلّ قديم وموروث، كان لزاماً على الموت أن يتخطفها وعلى البوم أن يجثم فوق خرائبها ناعياً لها.

طِرْ بجناحك

في غابـة عذراء أخذ نمر رشـيق منمنم ا لإهــاب وضيء الطلعة يشــق طريقه بين الأشجار الباسـقة والأغصان المتشابكـة، فيتوارى بـين حُلَل أوراقهـا الزمردية وأزاهيرهـا الفواحة، ويتهـادى متبختراً تتوّجه أكاليل الوقار وتحفُّ به هالة الهيبة والجلال، ومظاهر القوة والعنفـوان! فإذا ما بدت نواجذه تلـوح أنياباً قاطعة ولكنها لا تمزق إلا غلائل الشر والعار.

أما مخالبه فهي حادة نافذة لكنّها لا تسـتقر إلا في صدور الغل والكيد. وكان يرسل بصره بين الفينة والفينة في أديم الثرى وأخاديد الأرض ومطـاوي الحفـر فإذا بـه يبصر فأراً قد خـرج لتوه من مخبئه ملطّخاً بوحَل الأرض ورماد الحفر يفوح منه نتن المجاري وخبث الطوية فما إن رأى النمر حتى هرع إلى شجرة باسقة يلوذ بأغصانها ولم يلبث أن اعتلى الذروة منها وتبوأ مكـاناً عالياً لم يعتد عليه ثم أخذ يسـخر

مــن النمر ويرشــقه بألفاظ الســوء والبــذاءة، يســتخرجها من أعماق صدره ويمتحها من ظلام نفسه. فتوقف النمر هنيهة ثم رفع إليه رأسه دون أن يصــوِّب فيه بصره، وأجابه بصوت مزمجر أرعب الفأر فكاد أن يسقط من عل : إنه المكان لا اللا مكان يا فأر القاع!

ثم مضى في سبيله لا يلوي على شيء!...

من فيض الشعور

في التذكر ماض مستأنف

صوت الحياة

ذكريات

منذ أن يلد الإنسان تبدأ رحلة الحياة، لتمضي به إلى نهاية العمر وهو بين خروجه من رحم الأم إلى أن تغيّبه أطباق الثرى يمضي في رحلة طويلة مضنية في رحاب الحياة.

ولا بد له في رحلته هذه أن يتوقف في محطات، وينزل في واحات، ويتعرض لمحن وأوصاب، وعليه أن يجابه وقائع ويجتاز عقبات ويخوض غمرة صعاب وأخطار.

ولكن حوادث تلك الرحلة لا تمرّ بالذاكرة عرضاً ولا تتجاوز النفس دون أن تترك في أعماقها ذكريات لا تمحى، وآثار باقية خالدة لا تنال منها الليالي، ولا يأتي عليها زمن!.

وهي في معظمها ذكريات شديدة الوطأة، ثقيلة الوقع، مرَّة الطعم تتعمق جذورها في أغوار النفس تعمق جذور الحنظل في أطباق الثرى.

لذلك فأنا لا أستطيب معاودة الذكريات واجترار الأحداث. فإنّها إن كانت جميلة جزعتُ لذهابها، وتألّمت لرحيلها، وما أقسى أن يحيا المرء على أصداء ذكريات بعيدة ورجع خطرات حالمة!. فهو حينئذ لا يجني منها إلا التأسف على رحيل ذكريات غابرة، والحزن لوداع لحظات هانئة، قَصُر ثواؤها ولم تطل إقامتها.

ألمت فحيت ثم قامت فودعت فلما تولت كادت النفس تزهق

أمّا إذا كانت الذكريات مؤلمة فإن تذكرها ينكأ الجراح، ويعاود الأشجان وما أصعب أن يعيش المرء مواقف الشدة مرتين، ويتلظى بحرها من جديد، فما بالك إذا قُدِّر له أن يتعرض لشدة وطأتها وثقل وقعها مرات ومرات وآناً بعد آن!..

ولكن أليس من الصعب على المرء أن يخرج من إهابه، وأن ينسى ذكرياته على اختلاف طعومها، وتنوّع مذاقها ؟ ولا سيما إذا علمنا أن نسيج بنائه النفسي، يتكون من تلك الذكريات ويتشكّل من ظلال وآثار تلك الخطرات!.

وليس لدى العاقل إذاً سوى أن يجعل من تلك الذكريات دروساً وعبر يعيش بها الحاضر ويتّخذها كالآتي من الأيام عِدّة وعُدّة.

إن الماضي ولّى ومضى، وعلى المرء أن يعيش الحاضر بكلِّ رحبه وأبعاده ويتهيّأ للمستقبل بكل ما أوتي من حيلة وحكمة، فإن الأيام حُبلى لا ندري ما تلد!

تذكِّرني الأحلام ليلى ومن تُطِفْ
عليه خيالاتُ الأحبة يحلم

زهير بن أبي سلمى

بواعث الأحلام

كلّما طافت الأحلام بالأنفس اهتزت وربت، وإذا ما داعبتِ المقلَ في غواشي الكرى ترقرق فيها دمعُ السرور وطفح على أهدابها الفرح!

فلتهنأ الأنفس بمناها، ولتسعد المقل برؤياها!

فإذا كانت اليقظة صورة النفس في مَحياها، فإنَّ الأحلام صورة النفس في مُناها. فهي مرآة النفس بكلّ ملامحها ونوازعها ولا سيما فيما تحبُّ وتتشهى وفيما ترغب وتتمنى، لذلك فالأحلام ابنة الحرمان، ووليدة المنى الظامئة تصدر عنه وتنبثق منه كما يصدر النهر من ينبوعه، وينبثق النور من سراجه، فما الحرمان إلا الزيت الذي منه تتوهّج الأحلام، والجرس النحاسي الذي من اهتزازه ينبعث الرنين!

فهمـا متلازمـان لا يفترقـان، ومتحـدان لا ينفصـلان، بهمـا تكتمـل الصـورة فبينهما علاقـة جدلية لا تنفصم ووشـائج قوية لا تنقطع، فالحرمان علّة كلّ حلم، والحلم ثمرة كل حرمان. وكلما زاد الحرمان هاجت الأحلام، وكل امرئ يحلم بما نفسـه عطل من حيازتـه، والتزيّن به، فالفقير يحلم برنين الدنانير، والظامئ بخرير الماء والسقيم بدبيب العافية، والخامل الذكر ببريق الجاه، والذليل بجلال العزة وهيبة المنعة.

ولكـن ما من أحد أكثر أحلاماً مـن الصَّب المفتون لأنّه يرى في وجـه ليلاه جنة الخلد التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، لذلك كان حرمانه أكبر وفقره أعظم!.

وليـس ذاك بعجيـب وما أمـره بغريب فقد حـرم جنة لا وصفَ لمحاسنها، ولا منتهى لمسراتها ولا عدَّ لمباهجها.

لذلك كانت أحلامه في قدر حرمانه، ومناه في قدر خسرانه، فإذا كان وجه ليلى كلما تراءى يضرم في الحشا الأشواق ويهيج في الصدر الحنين، فهو في اللحظة ذاتها يسـتثير الأحلام ويفتق الأماني ويدغدغ الخيال!

فإنَّ من تيك الأحلام ما يشـفُّ ويعذب حتى يجعل أحدنا يهتف مع شاعرنا من الأعماق: "فيا ليت أحلام المنام يقين".

إذا شئت أن تلقى المحاسن كلها

ففي وجه من تهوى جميع المحاسن

أبو العلاء المعري

مشكاة الحسن

ما منا امرؤ إلا وهو مفتون ببريق الجمال، مأخوذ بفنونه المنثورة، وصوره المنشورة يجري وراءه ملتمساً مواقع قَطْرِه ومعارض حسنه في الأرض والسماء، ينشر الشباك وينصب الأشراك، عسى أن يعود منه بصيد وفير أو يحظى من موارده بجمان نفيس.

وليت الأمر قد وقف عند هذا الحد، فقد تاه بعضهم عن مواقع قطره ومعارض حسنه، وحار بعضهم في كنهه وسرّه، فالتبس عليهم شكله واضطربت أمامهم هيئته واختلطت في أعينهم صورته.

وقد يجتزئ أحدهم ببعض صور الجمال، أو يركن إلى أحد جوانبه أو يُجذب إلى ملمح من ملامحه.

فهـذا أمـر ألفنا وقوعه، وحـال اعتدنا عليـه، ولكن العجب العجـاب أن تجمـع المحاسـن في صـورة واحدة، وتشـعُّ الأنـوار من مشـكاة واحـدة! ذاك أمر عزيز صعب المنـال لا يقع عليه نظر، ولا يجري في خيال، فما بالك إذا تجلّى ذاك الحسـن أمامك عياناً فملأ عينيك بالنور وصدرك بالألق ؟!

لقـد عزّ هـذا الأمر أن يقـع، وتعالى أن يتجلـى! إلا أن يكون وجـه محبوب تجلّى لعاشـقه، فنظر إليه بالقلـب والمهجة، لا بالعين والنظـر، فمـا إن تبـدّى له حتى خلـع عليه من صفـات الكمال ما لا يحصـى، ومـن صفات الحسـن ما لا يدرك. فاكتمل حسـنه وتم بهاؤه، فصار حقيقاً أن نهتف مع العاشق المفتون « ففي وجه من تهوى جميع المحاسن ».

فـإذا كان الهـوى يرينا الجمـال بادياً في وجه مَـنْ نحبّ، فإنَّ الحـقَّ يرينا الجمـال متجليّاً في وجه من نعبد جـلّ وتبارك في علاه، فما نثيرُ الحسـن وشـذرات الجمال المبثوثة في أرجـاء الكون صوراً وأنغاماً إلا ظلال من جلال وجهه، وأثارة من ألق بهاه، فما من حسن نراه، وما من نور نجتليه إلا وهو من فيض مشـكاته التي لا يرتقي إلى سناها نور، ولا يحيط بلألائها نعوت.

فذاك هو الحسـن الذي ينبغي أن نستشرفه، وذلك هو الضياء الذي يحسن أن نجتليه!.

في رحاب الفن والأدب

الفن الإسلامي

ما دخل شيء في دائرة الضوء إلا اكتسب لمعاناً وإشراقاً وتلألؤاً، وما انطوى شيء تحت ظلال الإسلام إلا اكتسى من جلاله معانيَ أسمى وآفاقاً أوسع وأغواراً أعمق.

لقد خلع الإسلام على الفن نظرة شمولية واسعة، فهي النظرة الصحيحة للحياة التي تساير ناموس الكون في جماله وتوازنه وتناسقه، وتبرز حكمة الخالق في قضائه وقدره، وتنسجم مع طبيعة الإنسان في كيانه الفكري والروحي والجسدي، وتتلاءم مع قيم الحق والخير والجمال.

فيعرض الفن الإسلامي هذه الحقائق بحيث تشتاق النفس في النهاية إلى الجمال والفضيلة وتنفر من القبح والرذيلة وتخرج من مدرسة الفن نفساً فاضلة متوافقة مع ناموس الكون، سائرة في ركاب الفضيلة، دائرة في فلك الجمال، ناسكة في رحاب الطبيعة.

لقـد تحـرَّر الفن في ظلال الإسـلام من الأغـلال الموصدة التي قيّده بها الفن الغربي بمدارسـه الفنية ومذاهبه الفلسـفية فجاء فنّاً ضيق النظرة صغير المساحة. فن عَزْلٍ وتخصُّص وإفراد. لا فن تجميع وتنسيق وكشفٍ عن القوانين العامة الغيبية التي تنظم الكون وتبرز حكمة الخالق وحسـن تدبيره. والتي تختفـي وراء القوانين الجزئية الصغـيرة التي تبرزها مذاهب الفن الغربية حسـب تصورها ونظرتها للحياة.

فيغـدو الفن الغربي أشـبه بالرسـم الكاريكاتيري الذي يبرز جزءاً معيناً من وجه الإنسان فتختل النسب وتتشوّه الصورة.

فالفـن الإسـلامي إذاً يصـدر عن التصوّر الإسـلامي الشـامل للكون والوجود الكبير الممتد منذ الخليقة إلى قيام السـاعة، ومن روحانية السماء إلى مادية الأرض، نظرة تربط بين الفرد والجماعة، وبين الإنسـان والكائنـات الأخرى ويعبر عنه تعبـيراً جميلاً صادقاً هادفاً محافظاً على نسب الكيان البشري. ومعطياً لكل جانب من جوانب كيانه نسبتها الصحيحة في لوحة الفن.

فللـروح حظهـا وللعاطفة حظهـا وللعقل حظه وللخيال نسـبته وللشعور نصيبه.

ثم تـبرزُ كلُّ هذه الجوانب المتباينة والأحاسـيس المتشـعبة في لوحة الفن بشـكل متماسـك مترابـط يحول دون بـروز جانب على

حساب جانب أو انحسار جانب أمام طغيان آخر وإذا حدث هذا فللحظات يعود بعدها الوضع الشاذ إلى صورته الصحيحة.

فيغدو العمل الفني أكمل وأجمل وأشمل.

من هذه النظرة يكتسب الفن الإسلامي مفهومه ويستلهم معناه، لقد ضيّقت المذاهب الفلسفية نظرتها للإنسان والكون ومسخت من شمولية تصورها له ووضعت الحواجز وأسدلت الستائر بين جوانبه النفسية وجزّأت كيانه إلى روحي ومادي دون أدنى رابط يربطها أو صلة تشدّها.

فها هي ذي الهندوكية والبوذية تنادي برهبانية الإنسان وتنبثق عنها الفلسفة المثالية والنظرات التجريدية من لدن أفلاطون إلى هيجل في العصر الحديث، وتصدر عنها فنون وآداب. لقد نظرت إلى الإنسان نظرة ناقصة كمن ينظر إلى شجرة مشدوهاً بزهرها المتلفع بالنور ناسياً كيانها المنغمس في كيان الأرض.

ثم جاءت النظرة الداروينية التي تؤمن بمادية الإنسان وحيوانيته وانبثقت عنها اتجاهات شتى في الاجتماع والاقتصاد وعلم النفس. ثم تلتها الماركسية في عالم الاقتصاد والتفسير المادي للتاريخ. والفرويدية في التفسير الجنسي للسلوك في علم النفس وغيرها من الفلسفات المتخصصة في تصوّرها للكون المحدودة في تخيلها له وقد صدرت عنها فنون وآداب لا تصور إلا اليسير من الصورة، ولا تصل إلا إلى الضحالة في العمق.

فالفن الفرويدي يصور الإنسان جسداً تحرّكه اللّذة , وجسم الإنسان هو حقيقته وغريزة الجنس منقطعة الصلة عن جوانب الحياة الأخرى الروحية والاجتماعية والفكرية.

والفن الماركسي كسابقه في فرديته وتخصّصه، وإن كان للجانب الاقتصادي فيه القدح المعلّى.فأيُّ كمال لفنٍّ يتجاهل روح الإنسان وفكره ومشاعره ويسجنه في حتميات اقتصادية وتاريخية ويجذبه إلى طين الأرض كلّما حلّق في رحاب السماء ؟

ثم جاءت الرومانسية بنزعتها الفردية ونظرتها السلبية تلهج بآلام الفرد وآماله وتتغنّى بعشقه للطبيعة، بعيدة عن إيجابية الإنسان وتفاعله مع مجتمعه ومسؤوليته في إصلاح عيوبه وتقويم اعوجاجه، آمراً بمعروف ناهياً عن منكر.

فجاء فنها ناقصاً، فردياً، هارباً لا يصور واقعاً ولا يصلح فاسداً.

وأخيراً جاءت المدرسة الواقعية ثورة عارمة تصبُّ حممها على كلّ فنٍ ملوّنٍ بالخيال، مزركش بالسحر، مزخرف بالظلال، موشّى بالصور.

فأتى فنها فناً واقعياً جافاً يصوّر الواقع كما هو كائن لا كما يجب أن يكون، وينظر إلى الأقدار المسيطرة على الإنسان على أنها أقدار منظورة مكشوفة وحتميات مرئية لا حيلة له للخلاص منها والانفكاك من إسارها.

إنّه سجين الواقع بكلِّ ما فيه من قيم اجتماعية موروثة وصراع طبقي حاقد وأوضاع بيئية واقتصادية راسخة.

لقد تصورت الإنسان على هذا النحو فكانت واقعية ناقصة مبتورة لم ترو نزعة الخيال وغريزة التطلع إلى الغيب عند الإنسان، فهي لم تعطِ الصورة الصحيحة التي يجب أن يكون عليها المجتمع، ولم ترد للإنسان أن يكون سيد بيئته وواقعه طالما أنها لم تحرره من الحتميات التي سجنته في سراديبها.

على حين تداركت واقعية الإسلام كلّ هذه السلبيات، فقد أرادت للإنسان أن يكون سيد الكون مركزةً الضوء على لحظات ارتقائه لا على لحظات ضعفه. فالواقع السيئ في الإسلام ليس واقعاً. وهبوط الإنسان وضعفه أمر طارئ يجب تجاوزه.

هذه واقعية الإسلام وتلك واقعية الغرب لا أريد أن أعلق بكلمة، فبضدها تتمايز الأشياء. هذا هو تصور الإسلام للفن فكلّ عملٍ فنيٍّ سايرَ هذا التصور فهو عمل جاد يستحق الاحترام ويحظى بالقبول، وكلُّ ما جانبه فن رخيص يفسد الأذواق ويشوه المفاهيم ويهدم القيم.

ما لإخواننا يتكلمون بكلامنا
كلاماً ليس من كلامنا!!..

أعرابي

طبع لا نطَبّع

دخل أعرابي مسجداً من مساجد الكوفة ليقيل في تلك الواحة الروحية الخضراء، ويتخفَّف مما ران عليه من غواشي الحياة وظلمات الليالي، فصادف حلقة نحوٍ وصرف من بين حلقات علمٍ كثيرة تملأ رحب المسجد.

أنصت قليلاً فإذا بصوت شيخ الحلقة يصول ويجول في مسائل النحو وقضايا الصرف، ولسانه يردّد مصطلحات النحو يبسط حقائقه ويقلّب وجوهه ويشرح علله فضاق الأعرابي ذرعاً بهذا التكلف وعافت سليقته اللغوية ذلك التقعر فتمتم برماً ساخطاً: " « ما لإخواننا يتكلمون بكلامنا كلاماً ليس من كلامنا ». لقد أدرك الأعرابي الفطن مكمن الداء وعلة الضعف في علوم العربية ولا سيما النحو، فإن أذنه المرهفة لم تألف تلك المصطلحات النحوية

الثقيلــة مثل: «العامل والمعمول والتعليق والظرف والرفع والخفض.. » فســد أذنيه إشــفاقاً وهتف بتلك العبارة النقدية الفريدة وقد اســتبدّ بــه الدهش من هذا الذي يســمعه، وأخذ يتســاءل: إنّه كلام عربي ولكــنّ الفطرة تأباه، والذوق لا يستســيغه، والبيان العربي المبين لا يلائمه.

إنه كلام عربي بليغ لم يفســد ذوقه زخرف المدينة ولا تكلّف العجمة. ولم يرنّق صفو لغته تقعّر النحاة وأساليب المناطقة.

وإنّي لأحســب أن مقولة الأعرابي قد أثارت لديَّ شاهية البحث والتنقيــب فأخذتُ أمعن النظر في عبارته وأقلب فيها الوجوه، وأمعن في معانيها النظر فإذا بالأعرابي يريد أن يقول:

اجعلــوا اللغة نصوصاً حوارية تمثيلية تتضمَّن بنية نحوية صغيرة أو صيغة لغوية محددة يتعلم الدارس من خلالها اســتعمال هذه البنية أو تلــك الصيغــة في موقــف لغوي من مواقف الحياة بيســر وطلاقة، بعيــداً عــن مزالق الزلل وعثــرات اللحن متخففاً مــن حفظ القواعد النحوية أو الاصطلاحات اللغوية.

اتبعــوا المنهج التمثيلــي الحواري في النصوص خلافــاً للطريقة التقليديــة الــتي تقوم على الأســلوب الخبري، لأنَّ اللغــة في طبيعتها محادثــة وحوار، خطاب ونجوى فكيــف يتعلم الغوص مَنْ لا يغوص في الماء ؟!

ومن المستحسن أن يذيّل كلَّ نص بتدريبات شاملة عن الأسلوب اللغوي المراد محاكاته أو البنية النحوية المراد إتقانها والقياس عليها حتى تصبح اللغة لدى الدارس طبعاً وملكة، لا حفظاً وتكلفاً فيغدو التعبير عنده فصيحاً بليغاً لا شائبة فيه ولا عجمة.

وقد أثبت الواقع التربوي أنَّ تعليم اللغة عن طريق القواعد وحفظ المتون خطأ فادح وجهد ضائع، والأقرب إلى الصواب، والأدنى إلى طبيعة الكلام تعليم اللغة بمحاكاة الأساليب اللغوية والحوار المبرمج الذي يقترب من واقع الحياة. ولا بأس أن يُذكَّر الدارس بالقاعدة في نهاية المطاف إذا أتقن ما تعلم، فاستظهار القواعد ليس بذي بال إذا استقام اللسان وصح البيان.

ألم يتعلم أبناء الأعراب اللغة مشافهة ومحاكاة في عصرٍ ما عرف النحو، ولم يكن فيه نحاة، وليكن لنا في ذلك أسوة حسنة جديرة بالاحتذاء!.

وينبغي عند وضع النصوص أو اختيارها أن تكون نصوصاً حوارية تهدف إلى إثراء الثروة اللفظية للدارس وإكسابه مهارة في استخدام الأساليب العربية في الكلام وإتقانها.

ويراعى في هذه النصوص أنْ تصوّر جوانب مختلفة من الحياة اليومية تكون للمتعلم زاداً وفيراً وهادياً منيراً إذا جال في الأسواق أو زار معلماً سياحياً أو مؤسسة رسمية فسيكون في جعبته مجموعة

لفظية تسدُّ الرمق، وتسعف المحتاج في سياق أساليب عربية فصيحة صحيحة.

لذلك لا يجد القارئ في هذه النصوص لغة أدب بل لغة حياة ولغة واقع فلغة الأدب خطوة تالية ومرحلة متأخرة من مراحل تعلم اللغات. هذا ما أوحى لي به كلام الأعرابي!

وهذا مبلغي من العلم وقصارى وسعي من الجهد فأنا ابتدأت من حيث انتهى غيري فليأت من بعدي وليبدأ من حيث انتهيت وبذلك يكتمل البنيان وتشاد الحضارة.

تعـرّضْ للشاعر عند ألقه!

صوت الحياة

الشعراء العشاق

سـؤال لا يبرح يـتردّد بالذاكرة ويلـحُّ عليها كلما سـلتْ عنه أو زهـدتْ فيـه يأتيهـا كرنين الجـرس يطلب الجـواب ويلحف في السؤال!

« أيُّ الشعراء أفضل وإلى البيان أقرب وإلى النفوس ألصق ؟»

إنه سؤال صعب، ولا سبيل للإجابة عنه إلا إذا تعرضنا للشاعر في حال ألقهِ الشعري وهيامه الشعوري!. حيث توهّج الشوق وانبعاث الحنين.

إنَّ مَنْ يتقحَّم على الشـاعر نفسه في هذه الحال كمن يتعرض للطبيعة في موسم الربيع أو يتعرَّض للسحاب في موسم الغيث!

ففـي هـذه الحال يكـون الشـاعر في أجمل حـالات النفس، وأطيب تقلّبات المزاج وأعلى مقامات الشعور.

ولا أحسب أن تلك الحالة الشعورية المتألقة تتوهّج في وجدان شاعر كما تألق بين جوانح:

مجنون بني عامر في حبه لليلى العامرية

وابن الفارض في عشقه للذات الإلهية

وابن خفاجة في افتتانه بالطبيعة

وأبي الطيب المتنبي في دورانه حول ذاته

والحسن بن هانئ في تعلّقه بالخمرة

فماذا علينا لو استقرأنا أدبهم واستنطقنا بيانهم ؟!

ففي صدر كلٍّ منهم فضاء شعري لا تطاريف له ولا أطراف، ودفء شعوري لا تخبو ناره ولا يسكن بركانه، وفيض شوق لا رادَّ لمده ولا حدَّ لانسياحه.

فماذا علينا لو حلقنا في ذلك الفضاء، ورتعنا في تلك الرحاب، ورشفنا من تيك الأقداح ؟!

قـــيـــس بـــن المـــلـــوَّح

الشاعر العذري

تذكرت ليلى

عرفـت بـوادي العرب عـدداً من العشـاق الذيـن تيَّمهم الحب العـذري العفيف، واسـتولى علـى قلوبهم وعقولهم، حتـى خرج بهم إلى الجنون، ومجنون ليلى أشـهر هؤلاء العشـاق، وهذه الأبيات من قصيدته المشهورة « المؤنسة »

تـذكَّـرتُ لـيـلـى والـسـنـينَ الخَـوالـيـا

وأيـــامَ لا نخـشـى عـلـى الـلـهـو ناهيا

وقـد يجـمـعُ اللهُ الـشَّـتـيـتـيـنِ بعدما

يَـظُـنَّـانِ كـلَّ الـظـنِّ: ألا تَـلاقـيَـا

لَحَـــى اللهُ أقـــوامـــاً يـقـولـون: إنَّـنـا

وَجَـدْنـا طـوالَ الـدَّهـرِ لـلـحُـبِّ شافِيا

خليلَيَّ: لا واللهِ لا أملكُ الذي
قضى اللهُ في ليلى، ولا ما قضَى لِيَا
قضَاها لِغَيْري، وابتلاني بحُبِّها
فهلاَّ بشيءٍ غيرِ ليلى ابتلانِيا
فيا ربِّ، سَوِّ الحبَّ بيني وبينها
يكونُ كَفَافاً، لا عَليَّ ولا لِيَا
فأشْهَدُ عند اللهِ أنّي أحبُّها
فهذا لها عِندي، فما عندها ليا ؟
أحبُّ من الأسماء ما وافقَ اسْمَها
أو اشبهَهُ، أو كان مِنهُ مُدانِيا
وإنِّي لأسْتَغْشي، وما بيَ نَعْسَةٌ
لعلَّ خيالاً منكِ يَلْقى خيالِيَا(١)

هذا قيس بن الملوح قد لوّحته شمس ليلى فأضرمت في نفسه نار وَجْدٍ لا تنطفئ، وسقته من شمائلها شراباً سائغاً ما زال يطلب منه المزيد، وأحاطته بجوٍّ ندي رطب من رقة الأنوثة، يفرّ إليه كلما اشتدَّ عليه حرُّ الهاجرة، وهبوب السّموم!

---

١ - شرح المفردات:
الغضا: نوع من الشجر، وهو نبات البادية وسكان نجد هم أهل الغضا. لحى الله: قبّح ولعن وأهلك. الكفاف: ما كان مقدار الحاجة من غير زيادة ولا نقصان.

فلا عجب وقد بلغ به الحال هذا المبلغ أن يخصّها بأعذب الشعر وأرقّ الخطاب ولا سيما في قصيدته الغراء « المؤنسة » [1]

وقد بلغ ذروة ألقه الشعري في قوله:

فما أشرِفُ الأيفاعَ إلا صَبَابَةً

ولا أُنشِدُ الأشعارَ إلا تَداويا [2]

تلك هي علّة الإبداع الفني وسرّ الألق الشعري، فلا بد أن يكون في صدر الشاعر من اللواعج بحرٌ زاخر ثائر لا يهدأ، وموج متلاطم من المشاعر لا يفتر!

وقوله:

أراني إذا صليت يممت نحوها

بوجهي وإن كان المصلى ورائيا

إنّها قبلة القلب التي إليها يتّجه، وكعبة الروح التي حولها تطوف، لقد تلاشى المكان فلم يبق شرق ولا غرب بل كعبة يتجه إليها المشوق وقبلة يصلي إليها العاشق!.

وقوله:

أحبُّ من الأسماء ما وافقَ اسْمَها

أو اشبَهَهُ، أو كان منهُ مُدانيا

---

١ ـ انظر القصيدة كاملة في ديوان [الحب والغزل] إعداد إميل ناصيف، منشورات دار جروس / لبنان / ١٩٩٠ / ط ١
وديوان « مجنون ليلى » جمع وتحقيق وشرح عبد الستار أحمد فراج.

٢ ـ الأيفاع: ج يَفَعَ ويفاع : كلّ ما ارتفع من الأرض.

لقد طفح حبُّ ليلى على فؤاد الشاعر ولم يزل حتى سال على كلِّ ما له ارتباط بها، أو تعلق بشخصها!

ولم يزل يغوص في ذلك اليم حتى صار كشعراء الأطلال، يهتز عند سماع اسمها، ويرتعش عند ذكر خبرها.

وقوله:

ألا ياطبيبَ الجنِّ ويحك داوني

فإنّ طبيبَ الإنس أعياه دائيا

إنه إعجاز الإحاطة بالمعنى فلا ثغرة تُسَدُّ، ولا زيادة تُزاد فإذا فقدت النفس الأمل بالبرء والشفاء فقدت التوازن وعدمت السكينة وبلغت مرحلة اليأس فإذا بها تزدرد مرارة التحسّر وتتجرّع غصص القنوط.

ففي ذلك مصرعها، وفي ذلك الأتون احتراقها!

وقوله:

وقد يجمعُ اللهُ الشَّتيتَيْنِ بعدما

يظنانِ كلَّ الظَّنِ أنْ لا تَلاقِيا

إنها بارقة أمل، وأمنية حلم! تومض في فضاء يأس مطبق وبين جوانح غشَّاها شجن أسود.

خمرة الإيمان ونشوة الذكر

ليست هذه الأبيات وصفاً للخمرة وأثرها، بل هي تعبير سام عن النزوع إلى الخالق والانتشاء بذكره والتعبير عن وجد الإنسان في الطريق عن كشف الذات الإلهية.

شـربِـنـا عـلـى ذكـرِ الحـبـيـب مُـدامـةً

سـكـرنـا بـهـا مـن قَـبْـلِ أن تُـخـلـقَ الـكَـرْمُ

لهـا الـبـدرُ كـأسٌ وهـي شمـسٌ يديرُها

هـلالٌ وكـم يـبـدو، إذا مُـزِجَـتْ، نَجْـمُ

ولـو نـظـرَ الـنَّـدْمـانُ خـتـم إنـائـهـا

لأسـكـرَهُـمْ مـن دونِـهـا ذلـك الخَـتْـمُ

ولـو نَـضَـحـوا مـنـهـا ثـرى قَـبْرِ مَـيِّـتٍ

لـعـادتْ إلـيـه الـــروحُ وانـتـعـشَ الجسمُ

ولـو طـرَحـوا في فَـــيْءِ حـائـطِ كرمها

عـلـيـلاً، وقـد أَشْـفـى، لَـفـارقَـهُ السُّقْمُ

ولـو قـرّبـوا مـن حـانِـهـا مُـقْـعـداً مَشَى

وتـنـطِـقُ مـن ذكـرى مَـذاقـتِـهـا البُكْمُ

ولـو عَـبَـقَـتْ في الـشـرق أنـفـاسُ طيبِها

وفي الـغـرب مـزكـومٌ لـعـادَ لـهُ الشمُّ

ولـو خُـضِّـبـتْ مـن كـأسِـهـا كـفُّ لامسٍ

لـمـا ضـلَّ في لـيـلٍ وفي يـــدهِ الـنـجـمُ

ولـو أنَّ ركـبـاً يمَّـمـوا تـــربَ أرضِـهـا

وفي الـرَّكـبِ مـلـسـوعٌ لـمـا ضـرَّهُ السُّمُّ

تُـهـذِّبُ أخـــلاقَ الـنَّـدامـى فيهتدي

بـهـا لـطـريـقِ الـعـزمِ مَـنْ لا لـهُ عَـــزْمُ[1]

وهـذا ابن الفارض لا يني يتنقل بين المنازل، ويترقّى بين المعارج حتى يبلغ مقام « المحبة »!

---

١ ـ شرح المفردات:

المدامـة: الخمـرة ، النَّدمان: جمع مفرده نَدْمان، ومؤنثـه ندمانة ونَدْمى ، نضحَ: رشّ، أشفى: امتنع شفاؤه ، مزكوم: مصاب بالزكام ، يمّموا: قصدوا.

ومقام المحبة أعظم به من مقام! لا يبلغه المرء إلا بعد أخذ النفس بالرياضة ومغالبة الذات بالترويض وطعان الهوى بسيف الإرادة.

فإذا ما اطمأن بشاعرنا المقام وساغ له الشراب تفجّرت شاعريته بالعذب المستطاب وانبجست من بين جوانحه لواعج البثِّ والشكوى وحلاوة الخطاب وصدق المناجاة.

ولا سيما في قصيدته الغراء « الخمرة الإلهية »[1]

فأيُّ نفس مشوقة مؤمنة تتوارى خلف أبياتها، وقد ضاقت عليها اللغة بما رحبت، فاستعانت بألفاظ النشوة والخمرة للتعبير عن تلك المواجد الطاهرة والكشف عن مخبآت الأشواق الثائرة، مما يجعل الأمر يلتبس على الأنفس فلا يدري الناظر أهو شعر محبة إلهية ووجد سماوي، أم هو شعر نشوة وخمرة ولذاذة .

إنَّ أزمة الشاعر في أنَّ أشواقه أكبر من ألفاظه ومواجده أوسع من أشعاره لذلك تعتريه غصَّة المشوق وحبسة الشعور، فتضيق العبارة ويعجز التعبير وقديماً قيل: إذا اتسعت الفكرة ضاقت العبارة!.

---

١ ــ انظر القصيدة كاملة في ديوان الشاعر « جلاء الغامض في شرح ديوان الفارض » بقلم « أمين خوري » بيروت المطبعة الأدبية ١٩٠٤ منشورات الشريف الرضي .

ابـــــــن خـــفـــاجـــة

شاعر الطبيعة وزوّار الجنان

الجبل الخالد

إذا كان بعض شعراء الطبيعة قد عنوا بوصف الطبيعة الحية المتحركة فإن ابن خفاجة قد عني بالطبيعة الصامتة فتغلغل في أعماقها ونطق بلسانها وأضفى عليها من سمات الجمال والروعة ما جعلها لوحات فنية ناطقة.

وأرعَـــنَ طـمَّـاحِ الـذؤابـةِ بـاذخٍ
يـطـاولُ أعـنـانَ الـسـمـاءِ بـغـاربِ

وَقـــورٍ عـلـى ظـهـرِ الـفَـلاةِ كـأنَّـهُ
طـوالَ الـلـيـالـي مُـفْـكِـرٌ في الـعـواقـبِ

أصـخْـتُ إلـيـهِ وهـو أخـرسُ صـامـتٌ
فـحـدَّثـني لـيـلَ الـسُّـرى بالعجائبِ

وقــــالَ: ألا كـمْ كـنـتُ مـلـجـأَ قاتل

ومــــوطــــنَ أوّاهٍ تـبـتّـلَ تـائـبِ

وكـم مـرَّ بـي مـن مُـدلجٍ ومُـؤوّبٍ

وقـــالَ بـظـلّـي مـن مَـطـيٍّ وراكـبِ

فـمـا كـانَ إلّا أنْ طـوتـهُـمْ يـدُ الـردى

وطــارَتْ بـهـمْ ريـحُ الـنَّـوى والنوائبِ

فـمـا خَـفْـقُ أيـكـي غـيـرُ رجـفَـةِ أضـلُـعٍ

ولا نَـوْحُ وُرْقـي غـيـرُ صـرخَـةِ نـادِبِ

ومـا غـيَّـض الـسُّـلـوانُ دمـعـي وإنّـمـا

نـزفـتُ دمـوعـي في فـراقِ الـصـواحـبِ

فـحـتَّـى مـتـى أبـقـى ويـظـعـنُ صـاحـبٌ

أودِّع مـنـه راحـلاً غـيـر آيـبِ

فـأسـمـعـنـي مـن وَعـظِـهِ كـلَّ عـبرةٍ

يـترجمُـهـا عـنـه لـسـانُ الـتـجـاربِ[1]

---

١ ـ شرح المفردات:
الأرعن: الجبل ذو النتوءات الطويلة الشاخصة ، الباذخ: العالي ، طمّاح: مرتفع الذؤابة: القمة، وذؤابة كل شيء قمته ، غارب الجبل: كاهله، وأعلى شيء فيه أصخت: استمعت وأصغيت ، الأواه: كثير الدعاء والحزن ، تبتل: تنسك وانقطع للعبادة ، المدلج: السائر ليلاً ، المؤوب: السائر النهار كله إلى الليل ، الأيك: الشجر الملتف مفرده أيكة ، الورق: ج ورقاء وهي الحمامة يضرب لونها إلى الخضرة.

من طبائع الأمور أنَّ الشيء يبقى جامداً صلداً لا حياة فيه ما لم يصبح في عهدة الفن أو تتناوله يد فنان! حينئذ سيضفي عليه فيضاً من نفسه، وروعة من فنه، وحياة من ذوقه ما يجعله أكثر بهاءً وأبهى حسناً! أليس الفن هو التصوير الجميل للأشياء ؟!

وأيُّ الأشياء أشد جذباً للفن وأكثر إغراء للفنان من الطبيعة! فهي قبلة الفن وفلك الشاعر يطوف في أرجائها ويتنسّك في محرابها، إذا ضاقت نفسه، واضطرم وجده، وهاج حنينه!.

ولم تشهد الطبيعة عاشقاً لمحاسنها، طوّافاً في أرجائها كابن خفاجة؛ فقد هام بها هياماً تجاوز كلّ حد، وفتن بحسنها فتنة تجاوزت كلَّ مألوف!

فقد رأى في ربوع الرياض خير مجلس، وفي طلعتها أبهى ما تقع عليه النواظر وفي صمتها أبلغ أفانين الخطاب، وفي همسها أرقّ أنواع البيان!

لذا جعلها ملاذه الآمن وواحته الأثيرة إذا اعتراه خطب أو نزلت به نازلة!

فهي وتره إذا طرب، ونايه إذا حزن، وكأسه إذا شرب، تمنحه أذناً واعية إذا أراد الخطاب، وتبذل له صدراً رحباً إذا أراد البوح والشكوى.

لذلك أمضى حياته في رحابها، يرتع في أرجائها، ويلهو في بطاحها حتى لقِّب بالجنّان، ولا عجب بذلك فقد مزجها بنفسه وملأ

منها عينيه، وجعلها قوام شعره وبثها في تلافيف قصيده، فبلغ بذلك مبلغاً تقاصرت عنه أقلام الشعراء ومعاني المبدعين!.

ولعل من أبرز قصائده التي تكشف أغوار نفسه وتصور ملامح فنه ووحشة نفسه قصيدته « الجبل الخالد » [1]

لقد بلغ الإبداع عند شاعرنا أنّه استطاع أن يبثّ الحياة في الصخر، ويخلع عليه الحياة والنضارة والجمال، فإذا بهذا الجبل الأصم والصخر الجامد شيخاً وقوراً يطرق رأسه متفكّراً يسبر أغوار هذا الكون فيتأمل الظواهر، ويفكر في العواقب. إنّه يشكو الوحدة، ويبكي مواقف الوداع. وموقف الوداع من أشد مواقف الحياة إيلاماً ولوعة وحسرة. فنحن حين نبكي الراحل لا نبكيه لأنه أودع في لحده وهيل عليه التراب، كلا!. فهو في حضرة الإله وفي جناب ربٍّ كريم.

ولكننا نبكي فراقه، ونأسف على الحرمان من طيب عشرته والأنس بصحبته. والجبل بجرمه الكبير وكلكله الجاثم لا يستطيع انتقالاً ولا يقوى على حركة، لذلك كانت فجيعته بالراحلين عنه كبيرة ومفارقته لهم مؤلمة فها هو ذا قد أمسى وحيداً يتجرَّع الألم ويجترُّ الذكريات!.

وإنّي لأحسب أنّ الشاعر قد أسقط نفسه على هذا الجبل فهو مرآة نفسه الكئيبة ولا سيّما حين غيّب الموت الصحب والخلان ممَّنْ كانوا على طينته وخلقوا على جبلته.

---

١ ـ« ديوان ابن خفاجة » مصر عام ١٢٨٦هـ ١٨٦٩م
« ديوان ابن خفاجة » دار صادر بيروت ١٩٦١م

والشبيه يأنس بالشبيه!.

أبــــو الــطـيــب المـتـنـبي

شاعر الكبرياء والقوة والإباء

أطاعن خيلاً

يتغنـى الشـاعر بمغامراته وطموحه، ويعبر عـن آلامه وآماله، ويـذم الزمـان والحظوظ ويفصح عـن تغربه في مجتمع فسـدت فيه الذمم وضاعت بين أبنائه القيم.

إنه شعر القوة والاعتداد بالذات!.

أطـاعِـنُ خـيـلاً مـن فـوارسـهـا الـدهـرُ
وحـيـداً ومـا قـولـي كـذا ومـعـي الصَّبرُ
وأَشْـجَـعُ مـنّي كـلَّ يـومٍ سلامـتي
ومـا ثَـبـتَـتْ إلا وفي نـفـسِـهـا أَمْــرُ
تمـرَّسْـتُ بـالآفـاتِ حـتـى تركتُها
تـقـولُ أمـاتَ المـوتُ أم ذُعِـر الـذُّعْـرُ

وأقـدمـتُ إقـدامَ الأتِـيِّ كـأنَّ لي
سوى مُهجَتي أو كانَ لي عندَها وتْرُ

ذرِ النَّفسَ تأخذْ وُسْعَها قبلَ بينِها
فمفترقٌ جارانِ دارُهما العُمْرُ

ولا تحسَبَنَّ المجدَ زِقّاً وقَيْنةً
فما المجدُ إلا السيفُ والفتكَةُ البِكْرُ

وتضريبُ أعناقِ الملوكِ وأن تُرى
لكَ الهَبَواتُ السُّودُ والعَسْكَرُ المَجْرُ

وتركُكَ في الدنيا دُويّاً كأنّما
تداولَ سمعَ المرءِ أُنملُهُ العشْرُ

عليَّ لأهلِ الجَوْرِ كلُّ طِمِرَّةٍ
عليها غلامٌ ملءُ حَيْزومِهِ غِمْرُ

يديرُ بأطرافِ الرّماحِ عليهمُ
كؤوسَ المنايا حيثُ لا تُشتَهى الخَمْرُ

وكم من جبالٍ جُبْتُ تَشْهَدُ أنَّني الـ

جبالُ وبحرٍ شاهدٍ أنَّني البَحْرُ[1]

ما زال شاعرنا منذ أول عهده بالشعر مفتوناً بالنرجس، يستروح عبيره ويتأمّل ذاته في صقال بحيرة العجب الصافية حتى غدا شاعر الإباء والتغنّي بالذات، ولم تعرف قيثارة الشعر شاعراً عزف على وتر الذات كأبي الطيب المتنبي، وما فتئ حبُّ النفس يزداد اضطراماً بين جوانحه حتى فاضت قريحته بهذه النفحات الرقيقة في قصيدته الرائعة: « أطاعن خيلاً ». [2]

---

١ ـ شرح المفردات:

ما قولي كذا: ما استفهامية، وأراد بالخيل حوادث الدهر، أشار إلى أنه يصارع حوادث الدهر وحيداً لا ناصر له، ثم استدرك فقال: كيف أكون وحيداً وصبري ينجدني على نوائب الدهر، الأتي: السيل يأتي من بعيد، المهجة: النفس، الوتر: الثأر، ذر: فعل أمر من وذر بمعنى: دع، الجاران: الروح والبدن، تأخذ وسعها: تنال ما تشتهي من المجد واللذة والمال، الزق: سقاء يحمل فيه الخمر، القينة: الجارية الفتكة البكر: البطش الذي لم يسبق إليه أحد، الهبوات: غبار المعركة، المجر: الكثير، الدوي: صوت الريح ونحوه أراد به الصيت والشهرة أو أصوات المعركة، الأنمل: رؤوس الأصابع، يريد أن المجد يكون في كثرة الوقائع والغارات حتى يسمع دويها واختلاط أصواتها كما يسمع المرء نفسه إذا سد أذنيه بأنامله العشر، الطَّمرة: الفرس الوثابة، الحيزوم: الصدر، الغِمر: الحقد، جُبْت: قطعت.

٢ ـ انظر « ديوان أبي الطيب المتنبي » بشرح « أبي البقاء العكبري » دار المعرفة / بيروت / لبنان / ١٩٧٨ م.

فما أسعد الإنسان إذا كان منسجماً مع نفسه صديقاً لذاته، ليس عنده دوافع متناقضة أو أهداف متعاكسة، فإنه بذلك يكون قد اهتدى إلى خِباء السعادة، وأمسك بزمام الأمان!.

وما يزال الإنسان في خير، طالما لم يخرجه حبه لنفسه عن إنسانيته ويحول دون تواصله مع من سواه.

قد يكون شاعرنا قد أخفق في هذه الحال [1] وتعثر في ذلك المقام فقد بلغ شعوره بالتفوّق وحبه للذات مبلغاً لم يبلغه شاعر سواه لذلك أخذ يتغزل بنفسه غزلاً عالياً لم يرتقِ إليه شاعر، ولم ينسج على منواله ناسج، ولا سيما في قوله الذي بلغ ذروة الإبداع:

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر

وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبر

فهو لم يطاعن رجالاً من أمثاله أو يجالد فرساناً على شاكلته بل هو يطاعن الدهر بكل بأسه ويجالد الأيام بكل جبروتها، فإذا كان المرء على مغالبة الدهر قادراً فهو على سواه أقدر. وليس هذا فحسب فهو يتقحم الحياة نفسها وينتزع منها قسراً ما يشتهي، ثم يعود منها دون أن يحرم نفسه شيئاً من أطايبها. ألا ليت شعري أفوق ذلك الاعتداد اعتداد ؟ وفوق ذلك الزهو زهو، وفوق ذلك الإباء إباء ؟!

---

١ ــ تجلى هذا الإخفاق في الصراع بين حب المتنبي للأدب والشعر، وبين شعوره بالتفوق والشموخ وإيمانه المطلق بأنه يحمل بين جنبيه نفس ملك، وهمة أمير.

أبـــو نـــواس

شاعر الغربة والمدام

لي نشوتان

لـي نَـشـوتـانِ ولـلـنَّـدمـان واحـدةٌ

شـيءٌ خُـصِـصْتُ بـهِ مـن دونِـهـم وَحْـدي

إنّـه الشـعور المضاعف بالأشـياء، وإنّما ذلك آية رقـة، وأمارة شـفافية ومتى صفت النفس، ورقّت المشـاعر إلى هذا الحد انعتقت النفـس من جمودها وخرجت من شـرنقتها لتتبـوّأ مكاناً علياً وهي تتحلّى بالكمال وتتزيّن بالفضائل.

يَـــزيـــدُكَ وجـــهـــهُ حُـسـنـاً

إذا مـــا زدْتَـــــــهُ نـظـرا

أي إعجاز يكمن في هذا القول العجيب!

فكلّ شيء يبهت نوره ويخبو ألقه مع ترداد النظر، وتصويب الرؤية. إلا وجه مَنْ نهوى فإنه يزداد حسناً ويتراءى قشيباً.

ما يرجعُ الطرف عنها حين أبصرُها

حتّى يعودَ إليها القلبُ مشتاقا

ألا ليت شعري هل عرف أحدكم أعظم من هذا الاشتياق وأشد من ذلك الشوق ؟

فحسب المحبِّ وجداً أنه ما يرتد طرفه عمَّن يحبُّ حتى يعود إليه القلب مشتاقاً متلهّفاً وكأنه ينظر بعد غياب، ويتطلع بعد فراق!

ما مسَّكِ الطِّيبُ إلّا

أهديتِ للطِّيبِ طيبا

لكلّ شيء أصله ولكلّ نهر ينبوعه.

أما الطيب فهي مصدره، وأما المسك فهي وعائه، فهي الزهرة الكبرى التي تفوح بالطيب، وترشح بالعبير!.

هذا أبو نواس قد بزّ الشعراء بالإفصاح عن مرارة الغربة والاستيحاش من قساوة الدهر وتجهم الأيام[1]!

---

١ ـ ديوان أبي نواس تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ط دار الكتاب العربي بيروت، شرحه وفهرسه « سليم خليل قهوجي » دار الجيل / بيروت / ٢٠٠٣م.

ـ أمراء الشعر العربي لأنيس الخوري المقدسي، بيروت ١٩٣٦.

فـإن هذا الشـعور قد جعله ما عاش سـكّيراً مترنّحاً يحلق في كلّ فضاء، ويضرب في كلّ واد، ويهيم في كل تيه!

ولـو رحنا نمضي نتتبَّع معاني الألم واليأس والغربة في خمرياته لضاقت الصحائف، ووهى القلم، ولكن حسـبنا ما يشفُّ عنه شعره من لواعج ملتهبة ومشاعر رقيقة.

إنه لم يرتشـف الكأس لذة ولذاذة بـل لياذة وعياذة وهرباً من قهـر الحيـاة وتنكيـل الليالي ووحشـة النفس وخيبـة الأمل بالحظ والناس.

فنون الأدب العربي

لا أميل عادة إلى تلك المقولة الجاهزة الكسولة التي تردّدها أقلام أرباب النقد وتلوكها ألسنتهم: « أشعر بيت قالته العرب في كذا ». ذلك لأنّ لكلِّ مقام مقال وما يحسن في هذا الموضع قد يقبح في غيره فالتعميم في هذا المجال يجانب الصواب وينبئ بالخطل!

والأديب المفنُّ عادة لا يبدع في قول إلا إذا كان شديد الصلة بنفسه قريب الآصرة من وجدانه، ومن المحال على القلم أن يسلس العنان لربه إلا إذا كان في رأسه منجماً من الأفكار، وفي صدره بحراً ذاخراً متلاطماً من المشاعر، فإنَّ النبت لا يترعرع إلا في بقعةٍ طيبة التربة، عذبة السقيا، كذلك شأن الشعر فهو لا يصدر إلا عن لُبٍّ مترع بالفكر، وصدر فياض باللواعج، ونفس حبلى بالخواطر!.

وتحقيقاً لذلك فأنا حين أشرع في دراستي لفنون الخطاب الأدبي لن ألج عالمها من بابها الأوسع المعتاد بل من خلال مدخلها الأرحب المرتاد، أي من خلال أشعار شائقة استعذبتها، أو نثر رائق استظرفته أو تعبير سائغ استحسنته، مما هو ظل لنفسي، ومرآة لذاتي.

فهذا هو المدخل الأجمل، وذا هو المولج الأروع!.

الأدب السياسي

قد تصيب الخيبة أمل كل من يقلّب النظر في نصوص الشعر الجاهلي على علو منزلته ورفعة شأنه وسموه الفني، وذلك لندرة النصوص التي تهتم بالقضايا العامة التي تهم مجتمع الجزيرة العربية عامة متحررة من إسار القبلية والفردية.

وما زلتُ في هذه الحال من اليأس والقنوط حتى وقعت على قصيدة رائعة في مضمونها، آسرة في أسلوبها، وقد بلغ صدقها مبلغاً جعلتْ شاعرها يدفع حياته ثمناً لها.

ويكمن السرُّ في رفعتها وعلو شأنها أنّها خرجت من ميدان المكان وتحررت من قيود الزمان فإذا هي عالمية في أفكارها، إنسانية في مبادئها، وهي الدواء الناجع لهذه الأمة في أسقامها.

ـ لقيط بن يعمر الإيادي

شاعر جاهلي مقل، كان مثقّفاً يتمتّع بسداد الرأي والغيرة على قومه.

عمل كاتباً عند كسرى، وحينما صمَّم كسرى على غزو قبيلته إياد وأمر لقيطاً أن يكتب إليهم كتاباً يطمئنهم فيه إلى نيِّات كسرى ويستدعيهم إليه، كان لقيط يعرف حقيقة المؤامرة فكتب إلى قومه يطالبهم أن يتنبهوا ويحذروا المكيدة.

تذكر كتب الأدب أنّ إياداً اختلفت على نفسها، ولم تأخذ برأي لقيط فأوقع بهم كسرى، واكتشف كتاب لقيط فأمر بقطع لسانه.

تلكم هي قصيدة لقيط بن يعمر الإيادي يحذّر بها قومه من شرِّ عدو أزرق آت من الشرق، فهو يستنهض الهمم ويدعو إلى وحدة الصف ونبذ الفرقة ويحثُّ على شحذ السيوف وتجهيز الخيل وإعداد القوة.

إلى أن يبلغ الكمال في استثارة حميّة الشرف والحرص على الحمى والمحارم

يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غُيُراً

على نسائكم كسرى وما جمعا

وكأنه رأى بعين البصيرة أن العدو إن ظهر لا يرقب فينا إلّاً ولا ذمة فلا يتورع عن فعل أي شيء، وارتكاب كلِّ إثم وإتيان كل موبق واستباحة كل عرف، هذا فضلاً عن ترويع الأطفال وخدش حرمات النساء وإفساد الحرث والنسل.

لقد بزّت هذه القصيدة في موضوعها وفكرها الأغراض الشعرية الجاهلية الأخرى فبدت كاللون الزاهي الصارخ بين سائر ألوان القصيد.

حيث اعتاد الشاعر أن ينتقل في معظم حالاته بين مديح مقيت، وهجاء بذيء، ورثاء كسير، وفخر عقيم...

فما أحوجنا إلى أدب جاد ينظر النظرة الشاملة ويتطلع إلى القضايا العامة.

إنَّ غياب هذه النظرة جعلت الروم يستفردون الممالك الفينيقية الواحدة تلو الأخرى ويستبيحون تدمر عروس الصحراء تحت نظر القبائل المتفرّجة وسمعها، والأمر ذاته جعل الممالك الآراميّة عرضة لكلِّ غاز وهدفاً لكل طامع.

إن الخواء السياسي جعل الأمة العربية في أزهى عصورها تحت رحمة الأمراء من الأعاجم من المماليك والترك والفرس.

صحيح أن أولئك كانوا مسلمين، ولكن أيرضى أحدنا أن يَكِلَ أمرَ أهله وأسرته إلى أحد ولو كان أباه وأخاه ؟!

لماذا لم تكن العلاقة مع إخواننا المسلمين من سائر الأمم علاقة الندّ للندّ ؟ سؤال نضعه أمام من أوتي عقلاً وإخلاصاً من حكماء أمتنا!.

صـــــرخـــــة قـــومـــيـــة

لقيط بن يعمر الإيادي

أَبْـلِـغْ إيـــاداً وخَـلِّـل في سـراتِـهـمُ
أنّـي أرى الـرأيَ إنْ لم يُـعْـصَ قد نَصَعا

يـا لهـفَ نـفـسـيَ إن كـانـت أمـورُكُـمُ
شَـتَّـى وأُحـكِـمَ أمـرُ الـنـاسِ فاجتمعا

مـالـي أراكـــمْ نـيـامـاً في بُـلـهْـنِـيـةٍ
وقـد تَـرون شـهـابَ الحـرب قـد سطعا

فـاشـفـوا غـليـلي بـرأيٍ مـنـكُـمُ حَـصِـدٍ
يـصـبـحْ فـــؤادي بـه ريّـــانَ قـد نقعا

صـونـوا جـيـادَكُـمُ واجـلـوا سيوفَكُمُ
وجـــدّدوا لـلـقـسـيّ الـنَّـبـلَ والـشِّـرُعـا

لا تُـثـمِـروا المـــالَ لـلأعـداء إنّـهُـمُ
إن يَـظـهـروا يحـتـووكـم والـتِّـلادَ معا

يـا قـــومُ إنّ لـكـم مـــنْ إرثِ أوَّلِـكُـم
مجـــداً أحـــاذرُ أن يـفـنـى وينقطعا

مـــاذا يَـــردُّ عـلـيـكُـمْ عــزَّ أوَّلِــكُــمْ
إنْ ضـــاعَ آخـــرُهُ أو ذلّ واتّـضـعـا
يـا قــومُ لا تـأمـنـوا إن كـنُـتُـم غُــيُرًا
عـلـى نـسـائـكُـمُ كـسـرى ومـا جَمعا
هـو الـفَـنـاءُ الــذي يجـتـثُّ أصـلَـكُـمُ
فـمَـنْ رأى مـثـلَ ذا رأيـاً ومَـنْ سَمِعا
قـومـوا قِـيـامـاً عـلـى أمـشـاط أرجلِكم
ثـم افـزعـوا قـد يـنـالُ الأمـنَ مَـنْ فَزِعا
وقَـلِّـدوا أمـرَكـمْ للّه درُّكـمُ
رحـبَ الـذِّراع بـأمـرِ الحـرب مُضْطَلِعا
هــذا كـتـابـي إلـيـكُـمْ والـنـذيـرُ معاً
لمَـنْ رأى مـنـكُـمُ رأيـاً ومَـنْ سَمعا
وقـد بـذلـتُ لـكـم نُـصـحـي بـلا دَخَـلٍ
فاستيقِظوا إنَّ خـيرَ العـلمِ ما نفعا[1]

---

١ ـ شرح المفردات:

خلل في سراتهم: أكثر التجوال خلالهم. نصع: وضح وظهر. شتى: متفرقة. بلهنية: نعمة وغفلة. حصد: ناضج. نقع: ارتوى ظمأه. القسي: جمع قوس. الشرع : جمع شرعة وهي الوتر. إن يظهروا: ينتصروا. التلاد: المال القديم الموروث. اتضع: سقط. غُيُر: جمع غيور وهو الذي يثور لكرامته. افزعوا: احذورا. رحب الذراع: قوي واسع الصدر. مضطلع: مقتدر قوي التحمل. دخل: غش.

المذكرات أو السيرة الذاتية

قد تمرُّ بالإنسان في رحلة الحياة مناسبة سعيدة، أو تقابله مواقف طريفة، أو تنزل بساحته نوازل مؤلمة تنطوي على عظة وعبرة، وذكريات لا تمحى، فيحلو له أن يثبت كلَّ ذلك في يوميات ومذكرات، لما لها من أثر عميق في النفس، فيسهل على الذاكرة استرجاعها، فتعود حيَّةً ناطقة تعلوها النضارة ويرشح منها ماء الحياة.

كما نثبت المشاهد الطريفة، والمناظر الجميلة في صور وعدسات تستجليها العين كلما حنت إلى رؤية الجمال منشوراً، وألق الحسن بادياً.

فمن منا لا يميل إلى تسجيل مناسبات سعيدة مرت كسحابة صيف، أو تدوين واقعة أليمة حفرت أخاديد في أعماق النفس، أو تخليد تجربة مخفقة أثرت تجربة، أو وسعت معرفة.

وإذا كنا ننشط لكتابة المذكرات، ونحرص على تخليد السير الذاتية في مطاوي الصحف وتلافيف القرطاس، فما ذاك إلا

لأننا نتمنى أن نعيش الذكرى من جديد، ونسعد بالذكريات مزيداً فمزيد، أو نعي الدروس ونستخلص العبر حيناً بعد حين.

وما دام للمذكرات هذه القيمة الفريدة، فنحن نجتهد في مطالعة سير أرباب الفكر والفن والأدب نظراً لما تنطوي عليه حياتهم من تجارب ثرّة، وحكم بالغة، علّنا نقتبس من تجاربهم أو نستمد من حكمتهم فنثري ثقافتنا، ونزيد في معرفتنا، فكل امرئ كتاب مفتوح وسرٌّ مكنون!

لذلك ينبغي لمن يود تدوين مذكراته أن يتخيَّر منها ما هو جدير بالكتابة كأن يسوق حدثاً طريفاً أو يبرز واقعة مؤثرة أو يجسد تجربة غنيّة أو يسترجع مناسبات سعيدة، أو يصوّر بعض المشاهدات اليومية المتجددة فيكون بذلك قد حقّق المقصد، وأعطى هذا الفن حقه!

الوصية

يراد بها الترغيب فيما ينفع والتحذير مما يضر، فهي مرآة نفس الموصي، تنعكس فيها ملامح فكره، ولواعج صدره، وتجارب حياته، فيقدّم كلّ ذلك إلى الموصى أمشاجاً لطيفة في إطار عاطفة دافئة، وودٍّ صادق، وخاصة حين تجنح شمس حياته إلى غروب.

والوصايا فن مهم من فنون النثر الأدبي تكشف عن قيم المجتمع ومثله وهي تأتي نابعة من أحوال الحياة السياسية والاجتماعية والدينية والناظر في هذه الوصايا يستطيع أن يتعرف على كثير من جوانب الحياة في تلك الفترة.

ولا نظن أدباً من الآداب يخلو من الوصايا في أيِّ عصر من العصور، فالآباء يوصون الأبناء، والساسة يوصون القواد، والعلماء يوصون الأتباع، وذلك لتكون حياتهم خالية من الأخطاء والعثرات.

ومـن هنا تأتي الوصايا نابعة من أحـوال المجتمع وقيمه وعقلية أفـراده، وقـد تطـورت علـى مرّ السـنين تبعـاً لتطور أحـوال الأمم السياسية والاجتماعية والفكرية.

ويحسـن بـي أن أقدّم هـذا الثبـت المفصّل المتنـوّع الذي يصور شتى المناشط البشرية فكلّ ما فيها مصابيح نيرة تنير دروب الحياة الوعرة المدلهمة!.

مسرد بقلائد الوصايا في الأدب العربي[1]:

الوصية	موضوع الوصية	المرجع
العصر الجاهلي		
وصية أمامة بنت الحارث لابنتها ليلة زفافها	وصية اجتماعية	المستطرف / شهاب الدين الأبشيهي
وصية النعمان بن المنذر لجماعة من زعماء العرب حين وجههم إلى كسرى	وصية سياسية	العقد الفريد/أحمد ابن عبد ربه

١ ــ هـذه الوصايا قطـوف دانية اخترناها مـن كتـاب « أدب الوصايا في العصر العباسي » د. أحمد أمين مصطفى.

عصر صدر الإسلام		
أ ـ وصايا القرآن الكريم		
وصية لقمان لابنه	**وصية دينية تدعو إلى التوحيد وتنفر من الشرك وتحض على بعض القيم الأخلاقية والآداب الاجتماعية**	**سورة لقمان الآيات من ١٣ إلى ١٩**
ب ـ وصايا النبي صلى الله عليه وسلم		
وصية النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس	**وصية دينية تدعو إلى الثقة بالله والاعتماد عليه**	**الجامع الصغير، سنن الترمذي ـ الجزء الرابع**
وصية النبي صلى الله عليه وسلم لأمته	**وصية دينية تدعو إلى حسن الخلق وأدب التواصل**	**فتح الباري بشرح صحيح البخاري للعسقلاني جزء ٢٢ حديث رقم ٦٠٦٦**

الخلفاء الراشدون		
وصية أبي بكر الصديق لعمر بن الخطاب حين استخلفه	وصية جامعة ترى أن تقوى الله أساس النجاح في الدنيا والآخرة	البيان والتبيين جزء ٢ ط ٥ مطبعة المدني
وصية عمر بن الخطاب للولاة والقادة عند عقد الألوية	وصية سياسية إنسانية أخلاقية	العقد الفريد الجزء الأول
وصية عثمان بن عفان لعمال الخراج	وصية دينية عن حمل الأمانة والتعفف والنزاهة	تاريخ الطبري الجزء الرابع دار المعارف مصر
وصية علي بن أبي طالب لعبد الله بن عباس	وصية دينية تدعو إلى التقوى والتمسك بأهداب الدين	العقد الفريد الجزء الثالث
العصر الأموي		
وصية مروان بن الحكم لابنه عبد العزيز حين ولاه على مصر	وصية سياسية عن أصول معاملة الرعية وكسب ودها	العقد الفريد الجزء الأول

وصية عبد الملك بن مروان لبني أمية	وصية سياسية حول بقاء الخلافة في بني أمية	زهر الآداب الجزء الرابع
وصية عمر بن عبد العزيز للولاة في الأمصار	وصية حول العدل وأصول مسايسة الرعية	سيرة عمر لعبد الله ابن الحكم، مطبعة الاعتماد مصر
وصية الحسن البصري لعمر بن عبد العزيز	وصية دينية سياسية فيها تحذير للخليفة من الولاة الظالمين والانتشاء بالمنصب والولاية	العقد الفريد الجزء الأول
وصية عمر بن هبيرة إلى قائده مسلم بن سعيد	وصية سياسية حول اختيار الحاجب وصاحب الشرطة وسائر عمال الدولة	العقد الفريد الجزء الأول
وصية علقمة بن لبيد العطاردي لابنه	وصية تجمع صفات الصديق الوفي	عيون الأخبار لابن قتيبة، دار الكتب العلمية، بيروت الجزء الثالث

وصية مروان بن محمد إلى ابنه عبد الله كتبها له عبد الحميد الكاتب	وصايا سياسية واجتماعية ودينية	صبح الأعشى-الجزء العاشر،القلقشندي دار الكتب العلمية . بيروت
العصر العباسي		
وصية محمد بن علي لرجال الدعوة	وصية سياسية لإثبات حق العباسيين في الخلافة	عيون الأخبار لابن قتيبة جـ/١ دار الكتاب العربي/ بيروت
وصية ابرهيم بن محمد العباسي لأبي مسلم الخراساني	وصية سياسية شعوبية تشكك بربيعة ومضر والعرب أجمعين	تاريخ الكامل لابن الأثير جـ / ٥ دار صادر / بيروت
وصية عبد الله بن معاوية لأبي مسلم الخراساني	وصية سياسية يذكّر الموصي أبا مسلم بمسؤوليته تجاه الرعية.	البيان والتبين للجاحظ جـ/٢ مطبعة المدني ط /٥
وصية المنصور لابنه المهدي	وصية سياسية جامعة تناولت شؤون الخلافة والحرب والمال إلخ	تاريخ الطبري جـ/ ٨ دار المعارف

وصية المنصور لرجل ذكّره بالله	يوصي الناس ألا يذكروا من نزلت الحكمة عليهم	تاريخ الطبري جـ/ ٨
وصية المهدي لابنه وولي عهده الهادي	وصية مطولة شملت الإيصاء بتقوى الله كما شملت شؤون الولاية ومعاملة الأشياع واختيار الولاة.	العقد الفريد ج / ١
وصية الرشيد لابنيه محمد الأمين وعبد الله المأمون.	وصية سياسية بولاية العهد على صورة كتابين أحدهما على لسان الأمين والثاني على لسان المأمون.	تاريخ الطبري جـ/٨
وصية السيدة زبيدة لعلي بن ماهان	توصي خيراً بعبد الله المأمون عند الظهور عليه	تاريخ الطبري جـ/٨
وصية المأمون لعلي بن موسى الرضا	وصية سياسية بولاية العهد وشؤون الإمامة	صبح الأعشى/القلقشندي جـ/٩، المطبعة الأميرية بالقاهرة.

وصية المأمون في مرضه الأخير لولي عهده المعتصم	وصية مطولة جمعت كثيراً من رغبات المأمون وآرائه ومعتقداته.	تاريخ الطبري جـ/ ٨
وصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله	وصية شاملة لجوانب الأمور السياسية والحربية والاجتماعية والدينية	تاريخ الطبري جـ / ٨
وصية المتوكل لأبنائه الثلاثة بولاية العهد واحداً بعد الآخر « المنتصر، المعتز، المؤيد »	وصية سياسية بولاية العهد	تاريخ الطبري جـ / ٩
وصية الموفق لأحد رجاله وقد ولاه	وصية شاملة تجمع بين الوصايا السياسية والاجتماعية والدينية	اختيار المنظور والمنثور جـ / ١٣.
وصية محمد بن الفرات للوزير العباسي بن الحسن	وصية سياسية تدعو إلى الدقة في اختيار الولاة.	الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ / ٨ دار صادر بيروت

وصية أبو علي البصير إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان	يوصي صاحبه بألا يعميه حبه لأمير المؤمنين عن النظر بأمور الرعية	زهر الآداب / جـ ١
وصية ابن العميد لأبي عبد الله الطبري	وصية في الآداب الرسمية وفن صحبة الملوك والأمراء والساسة.	زهر الآداب جـ ٤
رسالة ابن العميد إلى ابن بلكا	وصية سياسية تدعو الخارجين على الطاعة إلى العودة إلى حظيرتها	يتيمة الدهر جـ / ٣
وصية الخوارزمي لأبي إسحاق الحاجب	رسالة شماتة تفيض بالوصايا النابعة من هذا الموقف	كتاب رسائل الخوارزمي مطبعة عبد الرحمن رشدي ط ١
الوصايا الاجتماعية		
وصايا ابن المقفع لسائر الناس	وصايا سياسية واجتماعية وأخلاقية مبثوثة في كتابيه « الأدب الصغير، والأدب الكبير »	الأدب الصغير مطبعة الظاهر القاهرة، الأدب الكبير، مطبعة منيمنة الحديثة بيروت

وصية عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب لابنه محمد	وصية اجتماعية تربوية	زهر الآداب جـ١
وصية الخليفة المنصور لابنه المهدي	وصية اجتماعية تربوية	تاريخ الطبري جـ / ٨
وصية بشر بن المعتمر في البلاغة	وصية أدبية وضعت أسس البلاغة العربية	البيان والتبيين للجاحظ جـ ١ مطبعة المدني
وصية المهدي للفضل بن الربيع	وصية اجتماعية تنظم العلاقة بين الخليفة والمحكومين	زهر الآداب جـ ٢
وصية الخليفة الرشيد للأحمر النحوي	وصية تربوية جامعة لكل ما يجب أن يعلمه المعلم المؤدب	مروج الذهب جـ٣ المسعودي دار الأندلس
وصية عبد الملك بن صالح لابنه	وصية شاملة جامعة بين الوصية بالأخلاق الحسنة وفن معاملة الناس	البيان والتبيين جـ٤

وصية أحد الحكماء بالعشق	وصية رومانسية عاطفية	زهر الآداب جـ ٤
المقامة الوصية	وصية تدور حول البخل والتحايل لكسب المال	مقامات البديع الهمذاني المطبعة المحمودية بمصر ط/ ٢
وصية أبو إسحاق الصحابي	وصية بالتطفل	صبح الأعشى / جـ ٤ /

الوصايا الدينية

وصية عمرو بن عبيد للمنصور	وصية دينية بالتقوى وحفظ الأمانة	زهر الآداب جـ / ١
وصية الإمام الأوزاعي للمنصور	وصية دينية بالتقوى وحفظ الأمانة	العقد الفريد جـ / ٤
وصية الإمام شبيب بن شبيبة للمهدي	وصية دينية بتقوى الله وحفظ أمانة الولاية.	العقد الفريد جـ /٣

وصية الإمام مالك للإمام الشافعي	وصية فيما ينبغي أن يكون عليه طالب العلم	أعلام الموقعين جـ ٤ لابن قيم الجوزية
وصية الإمام مالك لهارون الرشيد	وصية دينية شاملة	رسائل الإمام مالك إلى هارون الرشيد المطبعة الأميرية
وصية الخليفة المأمون لابنه العباس	وصية عامة بالتنافس في الخير والحرص على العدل وإحياء السنة وإماتة البدعة.	كتاب بغداد / جـ ٦ ابن طيفور
وصية الإمام أحمد بن حنبل لأهله	وصية شاملة بالتمسك بحبل الله وتقواه	حلية الأولياء / جـ ٩
وصية أبي الحسن الماوردي لأحد الوزراء	وصية بمراعاة الله في معاملة الرعية	نهاية الآداب جـ ٦

الترسل

ليس كالترسل فناً أدبياً يُصوِّر حال النفس وسورة حنينها، وضرام مشاعرها ويكشف في تلافيف الخطاب عن شدة الشوق وصدق الوفاء.وذلك لأن مخاطبة الغائب لا تقوم إلا على مكرمة الوفاء ولا سيما الوفاء لمن نكتب إليه ونتواصل معه.

والوفاء لا يكون إلا بالتذكّر، والمرء لا يتذكّر عادة إلا من له أثر في النفس وحضور في الذاكرة، ذلك أن أسلوب الخطاب في الرسالة يتطلب أن نتمثل صورة الغائب أمامنا بكلّ ملامحها وقسماتها، ونسترجع مختلف أنماط سلوكها، ونستعيد معها أعذب الذكريات ونقف عند أجل المواقف وأحرج الحالات.

وهذا الأمر يتطلَّب عبئاً نفسياً وجهداً فكرياً لا يتأتى إلا إذا كان أحدنا صادق الشعور طيب الوجدان مع من جعل من قلمه رسولاً إليه، وآية صدق ذلك الشعور أن يكون الخطاب عفوياً من وحي العاطفة ومقتضى الحال، بعيداً عن زخرف القول والتعابير الجاهزة التي أبلاها طول الاستعمال.

ألا إنّما الدنيا نضارة أيكة

إذا اخضر منها جانب جفَّ جانب

ابن عبد ربه

الزهد

أصدق ما يقال في الزهد أنّه رياضة روحية، لإخراج الدنيا من القلب إلى اليد، أما ما خالف ذلك وناقضه، فليس من الزهد النبوي في شيء، وإنّما هو من ضلالات البدع، وتهويمات المِلَل والنحل.

فالزهد إذاً، ليس إعراضاً عن الدنيا وهجر ما فيها، بل هو نقل الموقع، وتغيير المكان. والمتتبّع لشعر الزهد عامة، قلّما يقع على شعر رائق عذب، أو يلمح ألق إبداع فني فيه، فقد دبّت البرودة في أوصاله، وجرى التكلّف في كيانه، وكأن عدوى تلك البرودة وذاك الجمود، قد انتقلا إليه من ضلال التصوّر الأعجمي الغريب للزهد، فضلاً عن ثقل الوعظ، وغلبة الصنعة، وصرامة المنطق التي يرزح تحتها وينوء بشدة وطأتها.

ومع ذلك، لا يخلو هذا الفن الشعري من أشعار حازت قصب السبق، وبلغت أعلى مراقي الإبداع، فجاءت فريدة في حسنها، يتيمة في روعتها ومَنْ منَّا لا يقف ذاهلاً أمام هذا السحر البياني ؟:

ألا إنّمـــا الـدنـيـا نـضـارة أيـكـة

إذا اخـضـر منـهـا جـانـب جـفّ جـانـب[1]

ولا أذهــب بعيــداً إذا قلت: إن الإعجــاز يكمن في مطاوي هذا القول، والإبداع الجميل يشــعُّ في أوصاله، فالبيت يقوم على فكرة شائعة وصورة رائقة، فلا يكاد المرء يجد في تطوافه الشعري صورة تعكس ملامح الدنيا، كهذه الصورة، فمن المحال أن نبصر روضة غناء، قد اكتملت محاســنها وتمت زينتها فــلا نقع منها على زهرة ذابلة، أو ورقة شاحبة، أو لا نبصر من بين أغصانها غصناً يابساً قد طوّحت أزاهره، وجفَّ فيه ماء الحياة.

فمن طبيعة الرياض أن يتحوّل ظلها، أو ينتقل فيئها، فهي تُتبِعُ البسمةَ دمعة، والأمن قلقاً، والنضارة اغبراراً، وتجعل الأنسام سموماً!... إنها الدنيا هيهات هيهات أن تمكن أحدنا من أن يصيب كلَّ نوالها، أو تجود له بكلِّ عطائه، أو أن يجد في رحبها كلَّ أمانيه!.

فليطوّع المرء نفســه فيها على بعض الحرمــان، وليوطِّن إرادته على ضياع كثير من الأماني!.

تلك هــي طبيعة الدنيا وجبلة الأيــام « الفضل الناقص والعطاء المبتور » إنّها سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

---

١ ـ من شعر ابن عبد ربه الأديب الأندلسي، صاحب (العقد الفريد).

الرثاء

منذ أن يدبُّ دبيب الحياة في الإنسان، وتبدأ نفخة الروح العلوية تسري في أوصاله، تبدأ سوسة الفناء تنخر في كيانه لتضعَ نهايةً لرحلته الأرضية عبر الأيام والليالي، وتحدد موعداً دقيقاً لأجله لا يتقدم ولا يتأخر.

لذلك كره الإنسان الموت فهو لا يريد لحياته انتهاءً، ولا يرتضي لمسراته انقضاءً ولا لأمانيه ذبولاً، ولا يتمنّى لأخلاقه فراقاً وعن عترته بعداً. فالمأساة الحقيقية للموت ليس بانقضاء الأجل، وخلع رداء الحياة عن بني الإنسان، بل المأساة كل المأساة تكمن بغياب وجه من كنّا نأنس بصحبتهم، ونطرب لمجلسهم، ونهشّ للقائهم، حتى أصبحوا جزءاً من وجودنا، وواحات خضراء في حياتنا، وذكريات جميلة في خواطرنا، ومَنْ كان هذا موقعه منّا ومنزلته فينا، هيهات أن ننساه، وكيف ننساه وقد خالط الحشا ومازج الروح!.

هذا هو السرُّ في أننا نخلع على الغائب الراحل أجمل الصفات، وأرقَّ الشمائل، ونذرف عليه لآلئ الدمع وماء القلوب!.

وليس ما نضفيه على الغائب الراحل من شمائل ونعوت، وما نذرف عليه من شؤون العيون إلا أشجان نفوسنا، ولواعج صدورنا، وأنات جوانحنا.

إنَّ ما يحزننا ليس فقد الخليل، وإنّما فقد الأنيس، وليس رحيل الظاعن وإنّما غياب الرفيق في رحلة الحياة بين دروب العمر.

لذلك نبكي المتوفى، ونحزن على الفقيد.

وليت رحيل الغائب هو كل ما نفتقد!

أليس لذبول الآمال، وصوح المنى الطعم نفسه، والشراب ذاته؟

أليس في كأسه مر الصاب، ومذاق العلقم ؟

قد تكون الآمال الذابلة والأماني الحلوة أحقّ بالرثاء وأجدر بالأنين من فقد الخليل، ذلك لأنها جزء من الذات، وشطر من النفس، وفي فقدها فقد بعض الذات وانشطار جزء من النفس.

لأنّ الحياة لا تحلو إلا بها، ولا يعذب العيش إلا بتحقيقها.

وجهك يا جعفر في قبحه

أولى من العورة بالستر

إبن الرومي

الهجاء

إذا كان لبُّ المدح هو خلع صفات الكمال على ا لممدوح لسوء طويّة ومقاصد مشبوهة، فإنّ الهجاء على النقيض من ذلك، فهو يدور حول سلبه هذه الصفات وإسقاطها عنه، ثم إكساؤه ما قبح من الرذائل والمعايب التي تورث المذلّة والمعرة لمقاصد مشبوهة أيضاً.

والهجاء على الأغلب يقوم على عيب من عيوب النفس بل على أسوأ ما في رذائلها ألا وهو الكره، وربما تطور ذلك الشعور الدنيء إلى شعور أدنى ألا وهو الحقد.

وهذان الخُلُقان « الكره والحقد » أمارة لؤم ومظهر خسّة في النفس البشرية إذا زلّت وعثرت ثم سقطت.

فالهجاء إذاً لا يقوم على مكرمة ولا يصدر عن قلب سليم فهو من الفنون الأدبية الذي لا حظ للأخلاق فيها.

ومـن النادر أن يصـدر كلٌّ من المدح والهجاء عن حسـن طوية ومقاصد شـريفة، فلا نـكاد نقع على مدح أحد أو إطراء شـخص لسـمو خلقه ونبل مشـاعره ونادراً ما نهجوه لارتكاب آثام أو إفساد في الأرض.

لذلـك سـقط هـذان الغرضـان مـن أغـراض الأدب لأنهما لا يذكـران المـرء بما فيه فهمـا يخلعان مـن الصفات أو يسـلبان من المكارم ما تقضي به المصلحة وما يتطلبه خلق النفاق!.

وللأمـر طبيعة نفسـية إذ إنَّ مـن سمات الصحة النفسـية لدى المرء، حسـن استخدام المشـاعر، والحذر من سورة العواطف وهياج المشاعر، والاعتدال في الشعور والتبصّر في الأمور.

فالإسراف في عاطفة الحب ينقلب إلى عبودية، والغلو في الفخر ينقلب إلى غرور، وتجاوز الحد في الحزن ينقلب إلى قنوط.

فالهجاء إذاً مظهر من مظاهر تطرّف النفس في غلوائها، وثورة العاطفة في عنفوانها، فإذا بالمرء قد غدا عاطلاً من فضيلة الاعتدال الشعوري الذي هو قوام الصحة النفسية وأماراتها.

أليس الهلاك كلّ الهلاك في جموح النفس عند ثورة لواعجها، حيـث يعجـز المرء عن الإمسـاك بعنان نفسـه، ويخفـق في تصحيح مسارها والتحكّم في حسن توجيهها، وربما زاد حران النفس فرمته عن صهوتها، وألقت به تحت سنابكها.

ولعـلّ ذلك الهياج النفسـي والفـوران الانفعالي هو الذي وسـم عصـر العـرب القديم [بالجاهلية] الذي كان سـبباً في ضرام نيران حرب قبلية دامية بين القبائل، مما حدا ببعض المؤرخين أن يقول: «لو تأخر الإسلام لفني العرب ».

إنه الفناء الذي يجتثُّ كلَّ شيء، ويأتي على كلِّ شيء.

﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾

سورة النجم / ٣٢

المديح

لا شيء يكلم الذوق ويدمي الوجدان كغلبة المديح على سائر الأغراض الشعرية الأخرى في أدبنا العربي الجميل، فهو يسري فيه سَرْية الجفاف في الغصن الرطيب، ويتراءى فيه كدمامة الجدري في الوجه الصبيح.

وحسبك به عيباً أنه يقوم على خبث المقصد، وكذب الشعور، وتمويه الحقيقة، فإن أطماع التكسب وجشع الرغائب تجعل المادح يضفي الصفات الحميدة والشمائل الكريمة على الممدوح زوراً وبهتاناً وهو منها عطل، وكفيه منها صفر.

وهو بذلك يحرم الشعر من « الصدق الفني » وهو أجمل ما فيه ويستبعد منه « دفء العاطفة » وهي التي تضفي عليه ماء الحياة.

أمـا ذلك الشـعر الوجداني الرقيـق الذي يصدر عـن خلٍّ نحو خليلـه أو صديق نحو صديقه حباً وإعجاباً فيخلع عليه من محاسـن الصفـات وكمال الطبائع، فليس من هذا الباب، فما يشـفع له أنّه لم تسرِ فيه لوثة النفاق ولم ترنق صفوه عكورة الكذب.

فنحـن منـذ القديم نـوزع شـهادات السـلوك والفضائـل على القاصي والداني دون حسـاب، فذا عالم عليـم، وهذا ماجد نبيل، وذاك مجاهد كريم و...

ونحـن نعلم أن النقد روح المجتمـع، وليس كالتفكير النقدي مَنْ يدفع المجتمع إلى الأمام ويرتقي به نحو الأعلى. فمن سواه يصحح الخطوة الضالة ويقوِّم السلوك المعوج ويصوب الأفكار الخاطئة ؟.

وللنقـد طبيعـة شموليـة عامة فهو الـدواء لـكلّ داء، والنجم الهـادي لكلّ ضـال يصلح لأمور الفرد، وينفـع لأمور المجتمع، وهو المحور والأساس في قضايا الفن والأدب!.

ولنا أن نتساءل في هذا المقام ما الذي يدفع جلّ الأدباء إلى هذا الضـرب مـن الأدب ؟ فما كان للأديب الذي [أدركته صنعة الأدب] ليهـوي إلى هـذا الدرك لو أنّ له من بيت المال حقـاً، ومن المال العام نصيباً يضمن له حياة كريمة، ويصون وجهه عن المسألة!

لقـد حرص الخلفـاء القدامى على الارتقـاء بالثقافة وبناء دور العلم، وتنافسـوا في إنشاء المكتبات وترجمة روائع الكتب ونفائس المخطوطـات، ولكـن لم يكن يخطر لهـم ببال الاهتمـام بالوضع

المعاشي لأرباب الأدب ورجال العلم والثقافة، ولم يفكروا بتخصيص مرتبات ثابتة لهم تقيهم داء المديح والاحتيال للرزق بما يعيب ويشين!

فقد كان لا يفوز بالطيبات من أرباب القلم إلا من اقترب من القصر أو دنا من البلاط، أما مَنْ أعرض ونأى بجانبه، وابتعد عن مركز الخلافة فإنّ الحاجة ستلاحقه والفاقة ستلازمه ما استطال به العمر وامتدت به الحياة!.

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾

« التكاثر » /١

الفخر

لا يخفى على كلِّ ذي بصيرة أنَّ أول ما يجنيه المرء من أشواك « الأنا » عبودية الذات؛ فإنَّ الإعجاب بالذات يجعل المرء يرى في نفسه الكمال مما يحجبه عن فضيلة الاستزادة، ويحول بينه وبين إحراز التقدم أو الارتقاء.

فالمحبة عاطفة طهر ونبل وسمو إلا في هذا الموضع، فهي تعمي وتصمُّ، حينئذ تتبهم أمام الناظر الحقائق وتتشابه عليه الدروب.

ومن مظاهر هذا الخلق القبيح « الاستئثار » فإنّ الفرد الأناني يحرص على أن يفوز بكلّ ثمين ويخصّ نفسه التي هي أحب إليه مما سواه بكل نفيس، وهو في سبيل ذلك قد يتعدّى على حقوق الآخرين، أو يستحل سلب ما بأيديهم مما يثير حفيظتهم تجاهه، ويملأ صدورهم موجدة عليه.

وليت الأمر يقف عند هذا الحد، فإنَّ للأمر مظهراً نفسياً آخر أعظم أثراً، فإنَّ الاعتداد الزائد بالنفس يؤدي إلى التقليل من شأن الآخرين والاستخفاف بهم والتعالي عليهم، مما يزيد في تشرذم المجتمع وتمزقه وتنابذ أفراده فإذا بهم كرمال الصحراء يبددها أضعف نسيم وتذروها أوهن عاصفة، من أي جهة كان مأتاها ومن أي أرض أتى مسراها.

من هنا ندرك أبرز الأسباب التي تشعل من حين لآخر حرباً قبلية لا تبقي ولا تذر، فالعربي الشامخ لا يرضى لأحد أن يتشامخ عليه والفتى الماجد لا يسمح لأحد أن يتعالى عليه، فهو يربأ لنفسه أن تقع في موقع الدون أو تهبط إلى الدرك الأسفل.

إنه منطق الكبرياء وحالة الاستعلاء!.

بحكى أن

ماذا لم تغتصبني ؟!

امرأة عجوز شاخ فيها كلُّ شيء إلا قلبها الطامع وهواها الجامح!

وانطفأت عندها كلُّ عزيمة إلا إرادة الشر! وقبحَ عندها كلُّ ملمح إلا نظرات الغواية!..

كانت تقيم وحيدة في قصرها المنيف، ومخدعها الأنيق، تكره كلَّ زائر، وتمقت كلَّ ضيف، فقد عاشت حياتها لا تألف ولا تؤلف، ولكنَّها كانت على مرقبة من كبير اللصوص الذي عرف خبرها وأحاط بسيرتها فوجد فيها ضالة منشودة وصيداً وفيراً، فاقتحم قصرها في أحد الليالي واستلب ما فيه مما خفَّ وزنه وغلا ثمنه واغتصب ما عندها من نفيس الحلي ونادر الجوهر. ثم غادر مخدعها لا يلوي على شيء، ولكنَّه فوجئ بصوت مغناج ونبرة آثمة مزقت سمعه، وقيَّدت خطوهُ: «لقد سلبتَ من هذا المنزل كلَّ خير، واغتصبت منه كل شيء فلماذا لم تقترب مني ولماذا لم تغتصبني فتنال من أنوثتي أحلى شيء!!..».

إذن ابصقي على لحيتي

رجل أعمال كبير من أثرياء بلدي تنامت ثروته، واتّسعت خزائنه، اتّخذ من التجارة مهنة ومن السمسرة حرفة!

لم يتخصّص بفرع من شؤون التجارة، ولم يقتصر على مجال بعينه من مجالات السمسرة، فكان يتاجر بكل شيء ويتوسط في كل أمر، ويستخدم لذلك كلّ أسلوب ويبتدع كلّ مكر ولم يلبث أن أطلق لحيّة كثّة لتضفي عليه هالة من التديّن والوقار! وتكون بمنزلة شبكة صيد يقتنص بها ما يريد ويصطاد بفضلها ما يشتهي.

وهكذا تعطّلت نفسه من كل مروءة وخوت من كلّ مكرمة، فلا ينصر من يستنصره ولا يعيذ من يلوذ به، ولا يقيل عثرة من يسقط أمامه، ولا يكفكف دمع من يركن إلى جنابه!

وكان من ضحاياه امرأة ثيب أعطته مبلغاً من المال لاستثماره في مشروعات كانت قد ورثته عن زوجها الراحل.

وعندما حان وقت السداد أتت لتسترد دينها فأعرض عنها، وأنكر ما اتفقا عليه.

فقالت له ســاخطة: ألم تقل لي ابصقــي على لحيتي إذا أخللتُ بالعقــد وخالفت الاتفاق؟ وقد ظنت لســذاجتها أنهــا قد اقتربت من حقّها!

فــردَّ عليهــا بخبث ودهــاء وضحكة فاجــرة: هاهــا وماذا في ذلك!!! هيا ابصقي على لحيتي!!!

أنت أوسخ من أبيك

نشــأ ابناً لشــيخ الحارة، وقد أمضى مرحلة اليفاع وربيع العمر يعيش على ذكرى الآباء وسيرة الأجداد مع أنَّ مائدة أبيه من المكارم خواء، وصيت أجداده من الفضل هباء.

دخــل الحمــام مــرة دون أن يلقي على الجمع ســلاماً أو يرســل بســمة، حتــى بلغ أفضل المقصــورات في الحمام ويــده مثقلة بحقيبة أودعهــا مــا كثر وتعدَّد مــن أصناف الصابون والعطــر والطيب وما تنوّع، واســتلقى بجانب بيت النار حيــث الماء يغلي في موقده والبخار يملأ الرحب ورخام المقصورة ينفث لهباً.

وأمســك كيس الحمــام يتعهد بدنه بالتدليــك والفرك ثم ثنَّى بليف البشرة ينقلها بين تقاطيع جسده وهي تعتصر رغوة وماء.

وطاسات الماء الحار تتوالى على رأسه لتعمَّ سائر جسده.

وبعد لأي نشّــفَ بدنــه وارتدى ثيابه ثم خرج مــن الحمام يجرّر أذيال الخيبة، فقد حرّك الكيس على بدنه فلم تنفتح المسام، وسيّر

الليف على بدنه فلم تتساقط الأوساخ وسكب الماء على رأسه فلم يذهب بالأدران!

اتجه إلى قيوم الحمام وصاح به: كم الحساب ؟

القيوم: مئة ليرة.

ولكنك كنتَ تأخذ من أبي خمسين.

نعم هذا صحيح ولكنك أوسخ من أبيك!!!

الباب الخارجي

عاد الفتى إلى البيت تعباً برماً بأعباء الواجبات الدراسية وأثقال الكتب الطافحة بفيض المناهج!.

دخل البيت ولم ينتبه إلى أنَّ الباب الخارجي للبيت كان مفتوحاً والنوافذ مشرعة إلا بعد حين، حين أخذ يطوفُ في أرجاء البيت لتبديل ملابسه وإصلاح شأنه والتهيؤ للجلوس إلى مائدة الغداء فقد أوهن الجوع عزيمته وأضعف نشاطه.

وكلّما أراد دخول غرفة فوجئ ببابها موصداً فقد كانت أمه شديدة الحرص على نظافة الأثاث ونظام الدار، ومع ذلك كان يحتمل ثقل ذلك بصمت فقد روض نفسه على احتمال المكاره، ولكنَّ سورة غضبه لم تشتعل إلا حينما أراد دخول الخلاء وهو يتحسَّسُ بطنه وقد آذاه ما فيه، ولكنه ألفى الباب موصوداً فصرخ مستاءً!

لقد أوصدت أمي كلَّ باب في الدار ما خلا الباب الخارجي!!.

رأي الأحمق مفتاح حتفه

صوت الحياة

من أخبارهم

كان يستوي على مقعده في الطائرة، باسترخاء وإعياء، ويتثاءب ببلادة وكسل!

وقد خيّل إليه أن يعلو هامات البشر على صهوات السحب وأجنحة الأثير.

وهو في حقيقة الأمر في الدرك الأسفل من الأرض، وفي الحضيض، ولكنّها الدنيا تكرم اللئام!

وفجأة استرعى انتباهه حركة غير عادية في الطائرة، فالمضيفات في ذهاب وإياب، وفي اضطراب وارتعاش، وقد علا وجوههن شحوب القلق وصفرة الرعب، فالتفت إليهن يستطلع الخبر فإذا بصوت إحداهن يصيح:

- أيهـا الأخوة المسـافرون، اربطوا الأحزمة واثبتـوا في المقاعد وانتبهوا لتعليمات ستأتي لاحقاً!

فسـارع ركاب الطائـرة إلى تنفيـذ الأوامر ابتغـاء النجاة وحرصاً على السلامة، والطائرة ما تزال تعلو وتهبط، وتستوي وتنقلب، وتنعطف وتسـتقيم، وكأنَّ ملاحهـا قـد فقد زمامهـا، فما عاد لـه عليها أدنى سيطرة!.

والمسـافرون في هرج ومـرج، بعضهم يلهج بالدعـاء، وبعضهم يتشـكَّى بالدموع، وبعضهم يتلمَّس وسـائل النجاة، وبعضهم يتعلّق بخيوط الأمل.

وبعد حين طرق الأسماع صوت مدوي متلعثم أجشّ:

هيئوا المطافئ، وأعدّوا للهبوط المظلات!! والركاب يصيحون هلعاً لا يسـتقر بهم مـكان وكأنّهم في أرجوحـة يتمايلون مع نَوْس الطائرة وينفثون نفث دخانها وقد أخذ منهم الرعب كلّ مأخذ.

وكلٌّ منهم طيّع مطواع لتعليمات الملاح وتوجيهات المضيفات إلا صاحبنـا الأحمق الذي أخذ يتمرَّد على كلَّ توجيه ويسـتخفَّ بكلّ إرشاد فما زال لا يستوي في مكان، ولا يتطوّق بحزام!

حتى نهرته إحدى المضيفات:

- يا سـيد ألا تسمع! هيئ مطافئ الحريق، جهّز المظلة، حافظ على سلامة الطائرة وَ وَ...، فقاطعها الرجل بانفعال:

- لا تكملي فلن أنفّذ ، هي الطائرة طائرة أبونا!!.

لي الصيت ولغيري الفعل

سمسار كبير اتّخذ من أحد شيوخ الجان أستاذاً ومرشداً. لازمه وتتلمذ عليه وبدأ يأخذ عنه علم الخداع وأساليب نشر الشباك، وطرائق حياكة المكائد. فيتزوّد بالنصائح ويملأ الرأس بالوصايا!.

وفي عتمة الليل دخل السمسار على شيطانه يستجدي المشورة ويسأل الخبرة، فأراد الشيطان أن يختبر ذكاءه ليطمئن على خبث طبعه وسوء طويته:

ما أعجب ما مرَّ بك اليوم ؟

فأجاب سمسار البيوت مزهواً:

- بعت شقة شمالية الاتجاه على أنها قبلية جنوبية تدخلها الشمس صباح مساء!

- عجباً ما أسمع ولكن أخبرني بربك كيف أقنعت الزبون ؟ وهل هو غبي إلى هذا الحد ؟

ـ الأمر بسـيط ما إن دخل الزبون البيت حتى بسـطتُ سـجادة الصلاة تجاه الشمال لأوهمه أنها جهة القبلة.

فانتصب الشـيطان قائماً وهو يلطم خده وقد استشـعر النقص وأحسَّ الصّغار ثم هزَّ السمسار بقبضتيه:

اللّه يخرب بيتك، واللّه لم تخطر لي أفكارك على بالي

يبدو أن الصيت لي و لغيري الفعل!!..

حجاب للجن

درويـش مـن عامة الحـي عاش حياتـه يتّصل بالجـن ويصادق الأشباح ويخاطب الأرواح، وقد اعتاد أن يجلس إلى موقده النحاسي يتلـو الرقـى، وينفـث في العقد، يسـطر البخت ويكتـب الحُجب. وسُـحُب الأبخـرة المتصاعـدة تملأ الأرجـاء، ورائحة أعـواد البخور المحترق تزكم الأنوف.

وفي هـذا الجو الخانق التفت الشـيخ إلى عصبة الزبن من ذوي الحاجات وقد تعلقت أمانيهم به: هيا سلوا حاجتكم:

امرأة فاجرة: أريد حجاباً يمرض جارتي ويؤذي صديقتي!.

تاجر شـره: وأنا أريد حجاباً يؤدي إلى إفلاس جيراني من تجار السوق.

منافق أشـر: وأنـا أريد حجاباً يـزرع مهابتي في نفـوس الناس ليثقوا بي فأخدعهم!

غريب طارق: وأنا أريد حجاباً يجعل أهل البلدة في رقاد كالموت وفي غفلة كالسكارى فإني أريد سرقة البلدة...!

عند ذلك اقترب الشـيخ مـن منضدته القديمة وهـو منهم ملء العين والبصر وأخذ يكتب، فقاطعه الجميع: ماذا تكتب ؟

فانفجرت من صدر الشـيخ زفرة حرّى وكأنـه ينفث لهباً، ثم سدّ أنفه وأغلق مشامَّه باشمئزاز ثم رمقهم بنظرة ازدراء واستخفاف وتقزز:

أكتـب حجاباً لمعشـر الجن وجماعـة الشـياطين يحميهم من شرور الإنس ومطامع البشر!!

التوقيت الجديد

اعتاد الناس في أرجاء الريف الساحر أن يصحوا من رقادهم، ويتنبّهوا من غفوتهم على صياح الديك ينبعث نغماً عذباً مع طلعة السحر وبزوغ الإصباح إيذاناً بميلاد يوم جديد.

وكانت لعصبة منهم مجلس سمر، ومنتدى سهر، يفرّون إليه من عنت النهار، ووطأة الحياة، تحت ستائر الليل المسبلة على فسطاطهم من كل جانب.

وشاءت المصادفة أن يمزّق سكون الليل وهدأة المكان نهيق حمار منكر يخدش الأسماع ويؤذي الآذان وكأنّ صوته أنفذ لآذانهم وأقرع لأسماعهم من صياح الديك، والعجيب أنه جعل نهيقه كلّ ليلة في موعد دقيق لا يتقدم ولا يتأخر، حتى بلغ الأمر بعصبة المجلس أن أخذوا يضبطون ساعاتهم على الثالثة ليلاً عند نهيقه فقد استأنسوا به وطربوا إليه واتخذوه بديلاً عن صياح الديك ومطرب الإصباح!

وما زال هذا الحال حتى عرضت للحمار أتان فاتنة من حسان الحمير حركت مشاعره وأثارت شجونه، فأطلق صراخاً عالياً

ونهيقـاً حاداً في منتصف ليلة محلوكة قاتمة تعطلت من زينة النجوم وحُلِـيِّ الكواكب، فظنَّ الناس أن الليل قد شـارف على الانتهاء، وأن ليلتهم سـريعة الخطا فضبطوا سـاعاتهم علـى الثالثة، وهم في غفلة عن التوقيت الحماري الجديد.

اللص الحكيم

ما زالت عصبة من اللصوص تطوف بأرجاء الزقاق تتوارى بأستار الظلام وتغيب عند كل منعطف، لعلها تقع على بيت سهل المدخل، مشرع الأبواب!.

وقادها بحثها إلى دار صغيرة من بيوتات الحيِّ فاقتحموه وهم يستشعرون البشر ويهتفون للفوز.

وما هي إلا لحظات حتى وجدوا أنفسهم يعبرون دهليزاً طويلاً إلى باحة الدار، فإذا هم وجهاً لوجه أمام مطبخ الدار، فدخلوه بحذر وهم يتحسَّسون طريقهم في الظلام الدامس، فوقعت يد أحدهم على أكياس متراصفة بجانب الجدار.

أنزل يده في أحدها فوقعت على شيء ناعم. فرفع إصبعه إلى فيه يتذوق ما لمست يداه فإذا هو ملح أجاج.

عندئذ انتفض مستنكراً: توقفوا أيها الرجال، واتركوا ما بأيديكم! لقد ذقنا ملح ربّ الدار وشربنا ماءه فلا ينبغي لنا أن نخونه، فقد غدا لنا صاحباً!.

اللص الفقيه:

لنـا جار فيما عرفت أبتُليتْ أسـرته وكلُّ مَنْ صحبه بانقباض كفـه وبخـل طبعه، وقد بلغ به الإمسـاك مبلغاً هبط به إلى أسـفل دركات الشـح! فتقاصرت يده عن كلّ معروف وتباطأت خطاه عن كلّ نجـدة حتى أمسـت نفسـه تعاف « خـذ » وتهـش إلى « هات » وقد تأصلت به هذه الخلة القبيحة حتى صار يضنُّ بالسـلام على من يقابله ويبخل بالبسمة على كلّ مَنْ يلقاه. ويستكثر الكلمة الطيبة على من يتودّد إليه.

فانتشر خبره بين القاصي والداني وشاع صيته حتى بلغ مسامع بعض اللصوص والشطار، فقررت عصبة منهم أن تدخل بيته فيكون لها في ثرائه نصيب.

واسـتطاعت العصبة أن تصل إلى خزانته فإذا سـيدهم يفتحها ويقتطـع منها مبلغاً ويخرج به علـى صحبه بعد لأي وترقّب، مما أثار غضبهم فصاح به أحدهم لماذا لم تسرق الخزنة كاملة!

فأجاب مبتسماً:

نحن أعرف بالله منه فحسبنا من ماله مقدار الزكاة.

مهر البومة

بومــة حكيمة من عالم الطـير، اتخذت وكرها بين الخرائب والأماكن المهجورة في أرض قفر وبقاع موحشة، وقد اتخذت عرشها علــى الحجر الأعلى بين الــركام تزهو بريشــها الزاهي، ومطرفها الحريري، وهي تدور برأســها عبر الجهات وترسل نظراتها إلى شتى الأرجــاء تتأمــل الكون وتســتنطق الأحــداث بعينــين ثاقبتين ورأس كبير.

وفجأة لمحها طائر من جوابي الآفاق من بني جنســها ففتن بها، وأحلّهــا من قلبه مكانــاً رحيباً، فقد كانت زاهيــة الريش، براقة المقلد، تبدو للناظر بادية الإباء، موفورة الذكاء.

ولم يدع الطائر العاشــق لعقله فســحة من مشــورة فسرعان ما تقدم لخطبتها وقد جاد لها بمهر كبير!.

فأشاحت بوجهها وأعرضت بجانبها وقالت ساخرة متأففة:

ـ أنــا لا أرتضي ما قدّمتَ مهراً فــلا إربة لي بذهب ولا رغبة لي بجوهر.

ـ إذاً ماذا تطلبين مهراً ؟

ـ أريد عشرَ بقاع من الخرائب.

فنفش ريشــه عجبــاً وعلا صوته يأســاً من هذا المهــر العجيب والمطلب الغريب

ـ أنّــى لــي هذا المطلــب العجيــب ؟ وكيف آتيك بهــذا المطلب الغريب ؟!

فابتسمت بخبث ثم أشارت إليه بإصبعها ساخرة:

ـ انظر إلى تلك المدن العامرة والرياض الزاهرة.

إنها ستغدو خرائب مهجورة وعوالم مطموسة وبلاقع مقفرة إذا بقيت تساس بهذه الصورة وتُدار بتلك الطريقة!

حينئذ اجعلها مهري وادّخرها جهازاً لي.

ثــم أطلقــت نعيباً حــاداً تجاوبت أصــداؤه مع نعيق شــؤم ونباح وعيد!!

النوق الأسيرة

قافلة من الهجن العتاق تضرب في أعماق الصحراء بإيقاع رتيب وخطاً وئيدة وقد أخذ منها الإعياء كل مأخذ، وفجأة التفتت إحدى النوق إلى أختها وقد لاحظت عليها أمارات القلق والحيرة والتساؤل فهمست بأذنها: أأنت متعبة ؟!

فأجابتها بحسرة وضيق: كلا ليس وعثاء السفر ووعورة الطريق وطول الرحلة ما يقلقني، ولكنني ما زلت أتساءل منذ اليفاع:

لماذا قدّر لنا معاشر الإبل منذ الأزل أن نُربط في كل ظعن وترحال بذنب حمار ؟!

الخروف الشارد

لمَّ الراعي شعث غنمه الشارد في رحاب المرعى بعد أن أخذ حظه من اللهو والسقيا والكلأ فانتظم قطيع الغنم في قطار طويل يغذُّ السير نحو القرية حيث الحظائر والراحة والنوم.

وكان يحلو لخروف سمين من أصل القطيع أن يندّ عن الصف ويخرج عن المسار من حين إلى آخر لينسم عبير الحرية ويستروح عبق الانعتاق ولكنه ما كاد يفعل حتى أحس وكأنّ نباح كلاب القطيع تشده إلى المسار بأمراس شداد وتثبتهُ بالمكان بأوتاد غلاظ فلا يقوى إلا أن يعود إلى القطيع ملوماً محسوراً مما أثار حفيظة الراعي فسأله وقد لاحظ عليه أمارات التبرّم والاستيحاش: ما بك؟ ما الذي يضجرك ؟!

فأجابه بامتعاض وهو يتنفس الصعداء، مالي كلما حاولت تغيير المسار وتجديد الوجهة أعادتني نبحة كلب أو زجرة زاجر ؟!.

المسارد العامة

١ ـ الآيات القرآنية

٢ ـ الأحاديث النبوية

٣ ـ الأشعار

٤ ـ الأمثال والأقوال السائرة

٥ ـ الموضوعات

١ ـ مسرد الآيات القرآنية

ـ سورة القصص ـ

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين . . . » الآية / ٨٣

ـ سورة الأحزاب ـ

« . . . ولن تجد لسنة اللّه تبديلاً » الآية / ٦٢

ـ سورة سبأ ـ

« . . . ما دلهم على موته إلا دابة الأرض . . . » الآية / ١٤

ـ سورة الحجرات ـ

« . . . وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » الآية / ١٣ .

ـ سورة النجم ـ

« فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » الآية / ٣٢

ـ سورة التكاثر ـ

« ألهاكم التكاثر » الآية / ١

مسرد الأحاديث النبوية

« داروا سفهاءكم »

« كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته »

« كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به »

« هو يوم انتصفت فيه العرب من العجم »

من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم حين سئل عن يوم ذي قار

مسرد الأشعار

فلله هاتيك الربا وربوعها ... فإني قد ضيّعتُ في تربها القلبا

ما مسكِ الطيب إلا ... أهديت للطيب طيبا

ألا إنَّما الدنيا نضارة أيكة ... إذا اخضرَّ منها جانب جف جانب

يا عالم الدين و يا ملح البلد ... مَنْ يصلح الملحَ إذا الملح فسد

وما الوجه إلا واحد غير أنَّه ... إذا أنت عدَّدت المرايا تعددا

لي نشوتان وللندمان واحدة ... شيء خصصتُ به من دونهم وحدي

فأميركم نال الإمارة بالخنا ... وفقيهكم بصلاته يتصيّد

يجود بالنفس إن ضنَّ البخيل بها ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود

يزيدك وجهها حسناً ... إذا ما زدته نظرا

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبر

وجهك يا جعفر في قبحه أولى من العورة بالستر

يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيراً على نسائكم كسرى وما جمعا

ما يرجع الطرف عنها حين أبصرها حتى يعود إليها القلب مشتاقا

ألمتْ فحيّت ثم قامت فودعت فلما تولت كادت النفس تزهق

إذا شئت أن تلقى المحاسن كلها ففي وجه من تهوى جميع المحاسن

وإني لأهوى النوم في غير حينه لعل لقاء في المنام يكون

تحدّثني الأحلام أني أراكم فيا ليت أحلام المنام يقين

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

وإنّما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم

تذكّرني الأحلام ليلى ومن تطف عليه خيالات الأحبة يحلم

ألا يا طبيبَ الجنّ ويحك داوني فإنَّ طبيبَ الإنس أعياه دائيا

أراني إذا صليت يممتُ نحوها بوجهي وإن كان المصلى ورائيا

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

أحبُّ من الأسماء ما وافق اسمها وأشبهه أو كان منه مدانيا

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا أن يكن أمانيا

فلم أشرف الأيفاع إلا صبابة ولم أنشد الأشعار إلا تداويا

مسرد الأمثال والأقوال المأثورة

- آن لأبي حنيفة أن يمدَّ رجله
- الأب رب ، والأخ فـخ ، والعـم غم ، والخال وبـال ، والولد كمد ، والأقارب عقارب .
- أدركته صنعة الأدب
- اللهـم حقق فيّ ما يقولون واجعلني خيراً مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون
- أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك
- أنت الزمان فإنْ صلحتَ صلح ، وإنْ فسدتَ فسد .
- اترك نفسك واتبعني
- ارتبط بالأصل واتصل بالعصر
- إخوان السوء كشجرة النار يحرق بعضها بعضاً
- إذا اتسعت الفكرة ضاقت العبارة
- إنَّ جهنم هم الآخرون
- إن هـذه الأمة لم تختلف في ربهـا ولا في كتابها وإنَّما اختلفت في الدينار والدرهم .
- إنَّه المكان لا اللامكان
- تعرَّضْ للشاعر عند ألقه
- حسبكَ من القِلادة ما أحاطَ بالعنق

- خذوا من كلِّ شيء أحسنه
- الحرُّ عبد إذا طمع
- حسبكم من ذكر عمر فإنَّه إزراء بالولاة ومفسدة للرعية
- السجدة الفضلى هي التي تُحرِّم عليكَ كلَّ سجدة لسواه .
- في التذكّر ماض مستأنف
- الكنز في أعماق النفس
- لا أجد ما أشتهيه ، وما أشتهيه لا أجده
- لا تقل شيئاً دعنا نرى
- لا تنظر إلى القول ، ولكن انظر من يقول !
- لا شيخوخة لنفس تثريها التجارب
- لا قيمة لما تعطيه ما لم يكن جزءاً من ذاتك
- لا يبـزّ ممثـلاً فناناً على خشـبة المسـرح إلا ممثـل مداهن على مسرح الحياة
- متى كانت أبواب السماء مغلقة ؟
- مَنْ ترك الأشياء كما هي ، لن تبقى كما هي .
- مَنْ كان حديثه عن الطعام والنسـاء فليعتزل مجلسـنا ، فإنِّي أكره الرجل يتحدث عن بطنه أوفرجه .
- من كان نعلاً فلا يفخرَنَّ بالقدم التي تنتعله
- مَنْ نثر حبة جنى سنبلة

- من وضع الحبل في عنقه انبرى كثيرون لجزِّه
- نأتي الخطأ ونلتمس التبرير
- نحن أعرف بأنفسنا
- نحن لا نفسر اليقظة ، فكيف نفسر الأحلام ؟
- نحن نعرب في القول ونلحن في العمل
- نفسكَ سائرةٌ بكَ ، وقلبكَ طائرٌ بكَ فكن مع أسرعهما .
- ما لإخواننا يتكلمون بكلامنا كلاماً ليس من كلامنا ؟
- يا أمير المؤمنين :عففت فعفوا ، ولو رتعت لرتعوا

المحتويات

النَّفسُ البَشَريَّة ٧

نحن أعرف بأنفسنا ٩

الكنز في أعماق النفس ١٣

لا أجد ما أشتهيه .١٥

ما الوجه إلا واحد .١٩

لا تنظر إلى القول .٢١

من كان نعلاً ٢٣

الجود بالنفس ٢٥

أعنَّةُ الخيل ٢٩

ولادات متعددة ٣٥

في رحاب الإيمان. ٣٧

السجدة الفضلى .٣٩

نفسك سائرة ٤٣

الأبواب الموصدة .٤٥

ألا إنما الدنيا نضارة أيكة ٤٩

في رحاب شهر الصيام ٥٣

الإمارة والسياسة ٥٥
السبب الخفي ٥٧
إنما الناس بالملوك ٦١
لا تقل شيئاً ٧١
هموم الخلفاء ٧٥
إنا عرضنا الأمانة ٧٩
كفتا الميزان ٨٣
نحن لا نفسر اليقظة ٨٧
من كان حديثه عن الطعام ٨٩
لا تزكوا أنفسكم ٩٣
الجواد الأصيل ٩٧
الحق بيّن والباطل بيّن! ٩٩

الوطن والمجتمع ١٠٣
فلله هاتيك الربا وربوعها ١٠٥
لا عطاء إلا من الذات ١٠٩
الحر عبد إذا طمع ١١٣
إخوان السوء ١١٧
مجتمع السوء ١٢١
المرء حيث يضع نفسه ١٢٥
تكلموا تعرفوا ١٢٧

الفكر والثقافة ١٣١
تخمة الثقافة ١٣٣
خذْ وَدع ١٣٥
مِنسأة سليمان عليه السلام ١٣٩
في السكون موت ١٤١
طِرْ بجناحك ١٤٥

من فيض الشعور ١٤٥
ذكريات ١٤٧
بواعث الأحلام ١٤٩
مشكاة الحسن ١٥١

في رحاب الفن والأدب ١٥٣
الفن الإسلامي ١٥٥
طبع لا تطّبع ١٦١
الشعراء العشاق ١٦٥
قيس بن الملوَّح ١٦٧
ابن الفارض ١٧١
ابن خفاجة ١٧٥
أبو الطيب المتنبي ١٧٩
أبو نواس ١٨٣

فنون الأدب العربي ١٨٧
الأدب السياسي ١٨٩
المذكرات أو السيرة الذاتية ١٩٥
الوصية ١٩٧
الترسل ٢٠٩
الزهد ٢١١
الرثاء ٢١٣
الهجاء ٢١٥
المديح ٢١٩
الفخر ٢٢٣

يحكى أن ٢٢٥
لماذا لم تغتصبني ؟! ٢٢٧
إذن ابصقي على لحيتي ٢٢٩
أنت أوسخ من أبيك ٢٣١
الباب الخارجي ٢٣٣
من أخبارهم ٢٣٥
لي الصيت ولغيري الفعل ٢٣٧
حجاب للجن ٢٣٩
التوقيت الجديد ٢٤١
اللص الحكيم ٢٤٣

اللص الفقيه: ٢٤٥
مهر البومة ٢٤٧
النوق الأسيرة. ٢٤٩
الخروف الشارد. ٢٥١
المسارد العامة. ٢٥٣
الفهرس. ٢٥٩